التطور الدلالي

فى كتاب الكُليات

لأبى البقاء الكَفَــــوى

(المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ)

إعداد الدكتور

ياسر السيد رياض السيد المرسى

(المدرس في كلية اللغة العربية بالزقازيق)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، نبيِّنا محمد ، وعلى آله وأصحابه الغُرِّ الميامين ، وبعد

فإنه يلحق المفردات – عبر الزمن – تطور وتغير في دلالاتها . وهذا البحث يتناول هذه الظاهرة في كتاب "الكُلِّيّات" لأبي البقاء الكَفَويّ ، وهو كتاب حافل بها ؛ مما دعا محققيْه إلى أن يقولا عنه – ضمن ما ذكرا من مميزاته – : إنه (أيضا مرجع زخّار للمهتمين بالدراسات اللغوية ، وبخاصة لهؤلاء الذين يقومون بمحاولات في تتبع مسار حياة الألفاظ العربية ، كيف تعيش وتَشِبُّ وتغنى ، ثم كيف يتغير مدلولها بمقتضيات المعطيات الحضارية) (١).

ومع ذلك فلم تأخذ هذه الظاهرة حظَّها في ذلك الكتاب ، من التفات الدارسين إليها ، كبعض أخواتها فيه (٢).

ثم إن هذه الظاهرة في حاجة إلى الكشف عن موقف التراث العربي منها ، ومدى إسهام علمائه المتقدمين والمتأخرين في دَرْسها ، وما لهم من نظرات وآراء سبقوا المحدثين إليها في

---

(١) مقدمة محققي الكليات ٥

(٢) فللدكتور غازي مختار طليمات بحث فيه بعنوان : المفهوم النحوي في كليات الكفوي بين المصطلح والتعريف ، وهو منشور بمجلة التراث العربي– دمشق ، العدد ١٠٦ ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

وللدكتور عبد الله أحمد محمد باز بحث آخر فيه بعنوان : تعليل التسمية في الكليات للكفوي ت ١٠٩٤ هـ ، وهو منشور بحولية كلية اللغة العربية بجرجا ، العدد الرابع عشر ١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م .

أوروبا وغيرها ، كما أن ذلك يفيد في المعجم التـــاريخي الـــذي تنشده العربية .

وقد حَفَزَني ذلك إلى دراسة تلك الظاهرة في هذا الكتـــاب للكفوي ، أُحلِّل مادتها فيه ، وألتمس من الشواهد للألفاظ ما يفيـــد في تاريخها الدلالي ، حسْب طاقتي ، وما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، وعملت على ربط ذلك بواقعنا اللغوي المعاصر؛ لبيان بقاء الدلالة المتطورة من عدمه ، أو ما أُضيف إليها حسب مقتضيات العصر . وغنيٌّ عن البيان أن " التطور " لا يعني هنا أكثر من "التغير" .

وتأتي هذه الدراسة في ثلاثة مباحـــث ، تســـبقها مقدمـــة وتمهيد ، وتتلوها خاتمة وفهرس للمصادر والمراجع . ذكرت في **المقدمة** سبب اختيار الموضوع ، وأهميته ، وخطتي ومنهجي في البحث ، وعرَّفت في **التمهيد** بالكفوي ، وكتابه الكليات ، وأسبابِ وأشكال التطور الدلالي ، وعرضت في **المبحث الأول** لتخصيص الدلالة ، وفي **المبحث الثاني** لتعميم الدلالة ، وفي **المبحث الثالث** لانتقال مجال الدلالة ، ثم بَيَّنْتُ في **الخاتمة** أهم ما توصلت إليـــه من نتائج من خلال هذه الدراسة .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الباحث

د. ياسر السيد رياض

أبو البقاء الكفوي

مؤلف كتاب " الكليات " هو أبو البقاء [1] أيوب بن موسى الحسيني الكَفَوي . ولد سنة (١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) في " كَفَا " من بلاد القِرِم [2] ؛ ولذلك يلقب بالكفوي ؛ نسبة إليها .

وليس لدينا شيء تفصيلي عن نشأته ، وكل ما نعرفه عن ذلك لا يتعدى إشارة وقعت من الكفوي نفسه ، في مقدمة كتابه "

(١) انظر ترجمته في : إيضاح المكنون ٢٥١/١ ، ٢ / ٣٨٠ وهدية العارفين ٢٢٩/١ وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣٥٥/٣ وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان (من القسم التاسع ٤٤٧/١٣ – ٤٤٨) ومعجم المطبوعات العربية والمعرَّبة ٢٩٣/١ ومعجم المؤلفين ٣١/٣ والأعلام ٣٨/٢ .

(٢) القِرِمُ أو القِرِيم أيضا – كماذكر صاحب التاج (قرم) ٢٥٦/٣٩ – : شبه جزيرة تطل على الساحل الشمالي للبحر الأسود ، تقع الآن في جنوب أوكرانيا شرقي أوروبا ، وكانت في العصور الوسطى مستعمرة رومانية ، ثم صارت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية سنة ١٤٧٥م ، في عهد السلطان محمد الفاتح ، ثم استولى عليها الروس وانهزم الأتراك سنة ١٧٧٧م ، ثم نالت استقلالها سنة ١٩٢٠م ، أهم مدنها : العاصمة سيمفربول و سباستبول ، والقِرِم تعني القلعة باللغة التتارية . انظر أطلس الإسلام د. حسين مؤنس ٣٥٨ ، ٣٦١ وتاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى تأليف : ح. هايد . ترجمة أحمد رضا محمد رضا ٢٧٣/٣ – ٢٧٤ ، والقاموس السياسي لأحمد عطية الله (القرم) ٩٢١–٩٢٢ .

وكَفَا ، بفتح الكاف والفاء وألف مقصورة . هكذا ضبطها ابن كثير في تقويم البلدان ٢١٤ ، وانظر : تاج العروس (كفى) ٤٠٩/٣٩ . وبعض المراجع التي تترجم للكفوي تذكرها بـ " كفه " !

الكليات " ، تتعلق بشغفه بالعلم وهو صغير ، وانكبابه على العلوم والفنون أمامه ؛ حتى جادت له برائع ألبانها (١) . ولا غرو ، فهو من بيت علم ، فوالده – الشريف موسى الحسيني – كان مفتـــي " كفا " .

ولِي الكفوي القضاء للدولة العثمانيــة فـــي العديـــد مـــن المـــدن فـــي : كَفَـــا – خلفًـــا لأبيـــه – واســـتانبول ، وبغـــداد، والقدس. ويُذكر أن الصدر الأعظم " محمـــد خـــان" كـــان قـــد استدعاه إلى استانبول وعينه قاضيًا ، ثم غضـــب عليـــه ؛ بعـــد أن وشى الوشاة به إليه ، فرجـــع إلـــى " كفـــا " وتمكـــن خـــان القِرِم (حاكمها) "سليم قراى " مـــن الإصـــلاح بينهمـــا، بعـــد اثنى عشر عامًا (٢). ولعل حديث الكفوي فـــي مقدمـــة الكليـــات عن أنه كان في عصر عضت فيه نوائب الـــزمن أبنـــاء العلـــم ، ونَشَبَت فيهم مخالب المِحَن (٣) – كان ذلك سببه.

ومؤلفات الكفوي متنوعة الاتجاهات ، وهي :

١. تحفة الشاهان ، وهو كتاب باللغة التركية في فروع الفقـــة الحنفي ، طبع في بولاق ١٢٦٥م ، واستنابول ١٢٨٥هـــ

---

(١) انظر : الكليات (مقدمة المؤلف) ١٥

(٢) عنى بذكر هذه الحادثة في ترجمة الكفوي ، كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العـــربي (مـــن القسم التاسع ٤٤٧/١٣) ويوسف إليان سركيس في معجم المطبوعـــات العربيـــة والمعربـــة ٢٩٣/١

(٣) انظر : الكليات (مقدمة المؤلف) ١٦

٢. شرح بردة البوصيري .

٣. شرح لامية العَجَم للطُّغْرائي [١].

٤. الكليات ، وقد طبع مرارًا ، كما سيأتي ، وهو موضوع البحث .

فغير صحيح أنه (لم تذكر المصادر من مصنفاته إلا ثلاثة كتب : أحدها الكليات ، وثانيها شرح بردة البوصيري ، وثالثها ... تحفة الشاهان) [٢] كما يذهب بعض الدارسين ، إلا أن يقصد مواضع مصادر ترجمته ، وليس ما ذكر عنه فيها في أي موضع .

وقد اتفق معظم الذين كتبوا عن الكفوي ، ممن ذُكروا، على أنه **توفى** سنة (١٠٩٤هـ/١٦٨٣م) ، وخالف الأستاذ يوسف إليان سركيس ، فذكر أنه توفى سنة (١٠٩٥هـ)[٣]. وقيل إنه :

---

(١) ذكره كارل بروكلمان ، وهو يتحدث عن شروح لامية العجم (تارخ الأدب العربي ٥/ ١٠) ولم يذكره في ترجمة الكفوي حين عدّ آثاره !

والطُغْرَائي : هو إسماعيل بن أبي نصر بن عبديل الأصبهاني ، كان أشعر شعراء أصبهان ، دخل بغداد ومدح بها أبا الحسن علي بن الحسين الغزنوي ، مات بفارس سنة ٥٤٣ هـ (انظر : الوافي بالوفيات للصفدي ٩ / ١٣٨) .

(٢) الكليات (مقدمة المحققين) ٧–٨

(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة ١/٢٩٣ ، وجاء كذلك في (إيضاح المكنون ٢/ ٣٨٠) لإسماعيل باشا البغدادي أنه توفى سنة ١٠٩٣ هـ . ولعله سهو منه ؛ حيث ذكر في موضع آخر من (إيضاح المكنون ١/ ٢٥١) أنه توفى سنة ١٠٩٤هـ ، كبقية الجماعة .

توفى قاضيا بالقدس[1] ، وقيل : عاد إلى استنابول ؛ فتوفى بها ، ودفن في تربة خالد [2] رحمه الله – تعالى – وأسكنه فسيح الجنان .

* * *

---

(١) هدية العارفين ٢٢٩/١ وكذا في معجم المؤلفين ٣١/٣

(٢) الأعلام ٣٨/٢

كتاب الكليات للكفوي

كتاب " الكليات " لأبي البقاء الكفـوي موضـوعه المصطلحات العلمية ، من حيث الشرح والتعريف بهـا ، وهو ينطوي – في الواقع – على بعـض الألفـاظ غيـر العلمية أيضا ، ويعده الدارسون في معاجم المصـطلحات العامة ، كبعض المؤلفات الأُخَر في هذا الفن (1) ، مثل : "مفاتيح العلوم " (2) للخوارزمي (ت ٣٨٠ أو ٣٨٧ هـ) ، " والتعريفات(3) " للشريف الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) ، و" تحقيق الكليات " (4) له أيضا و" التعريفات " (5) لابن كمال باشا (ت ٩٤٠ هـ) و"التوقيـف علـى مهمـات التعاريف " (6) لعبد الـرؤف المنـاوي (ت١٠٣١هـ)

(١) انظر : معجم المعاجم لأحمد الشرقاي إقبال ٤٩–٥٠ ودراسـات وتعليقـات في اللغـة د/ رمضان عبد التواب ٤٠

(٢) طبع بتحقيق فان فلوتن في ليدن سنة ١٨٩٥م (معجم المطبوعات العربية ٨٣٩/١) ومنـه طبعة بتحقيق هذا المستشرق عن الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠٤ م .

(٣) نشر في استنابول سنة ١٨٣٧م (تاريخ آداب اللغة العربية لزيـدان ٢٥٢/٣ ، ومعجـم المعاجم ٤٩) ، ومنه طبعة بتحقيق إبراهيم الإبياري عن دار الريان للتـراث بالقـاهرة دون تاريخ.

(٤) ذكره في مصنفاته جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٢٥٢/٣

(٥) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٤٢٢/١ وعبد اللطيف زاده في أسماء الكتب ٩٧/١

(٦) توجد منه طبعة بتحقيق د. محمد رضوان الداية ، عن دار الفكـر المعاصـر ـ بـيروت ، ط الأولى ١٤١٠هـ .

و"كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم " [١] للتهانوي من علماء القرن الثاني عشر الهجري .

وقد نهض الكفوي لتأليف كتاب " الكليات " هذا مع ما به من أحزان – كما يذكر في مقدمته – وقدمه لأحد الوزراء المشهورين بالجلال والفضل في الدولة العثمانية ، هو "مصطفى باشا"[٢].

ولكنه لم يذكر لماذا سمى الكتاب بهذا الاسم ، ويقول محققاه : (بداية كل فصل ببعض الكليات قد تكون السبب في ذلك) [٣] . كما في قوله في أول فصل الألف والباء عن الأَبْلَج : (كل متَّضِح أَبْلَجُ) [٤]، فيكون هذا من باب تسمية الشيء ببعض ما يشتمل عليه .

---

(١) نشر في كلكتا بالهند سنة ١٨٨٤ م بعناية سبرنجر ووليام ناسو (معجم المطبوعات العربية ١/٦٦٤) ، ومنه طبعة بتحقيق الدكتور لطفي عبد البديع عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣ م

(٢) انظر : الكليات (مقدمة المؤلف) ١٦–١٧ ، ولعل أقرب من يصدق عليه هذا الوصف للكفوي في تلك المدة هو مصطفى باشا الشهير بالوزير الأعظم أوحد الوزراء المشهورين بالجلالة والرأي الصائب وحسن السياسة ، ولى الشام في سنة ١٠٦٠ هـ ، وقيل في تاريخه : وزير الخير ، ألجئ في حكومته لغزو بلاد الدروز ، ولم تطل مدته في الوزارة فقتل سنة ١٠٦٥هـ . انظر (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٤/٣٩٦) .

(٣) الكليات (مقدمة المحققين) ٨

(٤) الكليات ٢٥

ويظهر على هذا التوجيه التأثر بتفسير كلمة " الكُلِّيَّات " في قول الثعالبي (ت٤٣٠هـ) في أول كتابه فقه اللغة : (الباب الأول في الكُلِّيَّات ، وهي ما أطلق أئمة اللغة في تفسيره لفظة "كُلّ") [١].

وأقرب من هذا عندي أن الكفوي سماه بالكليات ؛ لأن مصطلحات العلوم – وهي موضوع كتابه – (مجمع حقائقها المعرفية ، وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه)[٢]، فالمصطحات كليات للعلوم ، وقد وردت كلمة " الكليات " هذه في عنوان كتاب آخر من هذا القبيل للجرجاني ، كما رأينا .

ويظهر **منهج** الكفوي في " الكليات " [٣]في ترتيبه له (على ترتيب كتب اللغات)[٤]، أي على الترتيب الهجائي ، وأنه كان بلا تجريد لزوائد الكلمة ، وأنه جعل كتابه فصولاً على حروف الهجاء ، وأورد الكلمات بداخلها كيفما اتفق ، وأنه عنى بالاستشهاد لما يذكر[٥]، وضبط

(١) فقه اللغة وسر العربية ٣٦

(٢) قاموس اللسانيات د. عبد السلام المسدي ١١

(٣) انظر في هذا : مقدمة المحققين للكتاب ٨–٩

(٤) الكليات (مقدمة المؤلف) ١٨

(٥) انظر : السابق صفحات : ١٩، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٧٧ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٦٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٣٠٢ ، ٤٣١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٥٠١ ، ٥١٥ ، ٥٣٣ ، ٥٥٣ ، ٦٠٥ ، ٦٣٩ ، ٧١١ ، ٧٢٦ ، ٨٤٥ ، ٩٥٢ ، ١٠٧٦ مثلا .

المشكل من الألفاظ [١]، وكان يذكر المعنى اللغـوي ثـم الاصطلاحي للكلمة ، ويسهب إن احتاج الأمر لذلك ، وقد يذكر الكلمة في غير بابها ؛ لعلاقة بينها وبين الكلمة التي يعالجها، فهو مثلا يذكر المتاع مع الأَثَاث [٢]، والوِزْر مع الإثم [٣] ، والندم مع الحسرة [٤] ، والفـئ والنفـل مـع الغنيمة [٥] ، ثم يذكرها مرة أخرى في بابها ؛ ممـا أدى إلى التكرار أحيانا.

وأما **مصادر** الكفوي في " الكليات " فهـي كثيـرة ومتنوعة بين كتب في المعاجم واللغة ؛ كالعين للخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) ، وسر صناعة الإعراب لابن جني (ت ٣٩٢هـ) ، والصحاح للجوهري (ت ٣٩٣ هـ تقريبا) [٦] . وكتب أُخَر في الصرف والنحو ؛ كالكتـاب لسيبويه (ت ١٨٥ هـ) والمفصـل للزمخشـري (ت ٥٣٨ هـ) ، والشافية في علم الصرف لابن الحاجـب (

(١) انظر : السابق صـفحات : ٤٠ ، ٦٢ ،١٤٢ ، ٢٣٦ ،٣٩٧ ، ٥٤٠ ، ٦٩٤ ، ٩٠٦ ، ٩٦١ مثلا .

(٢) انظر : السابق ٣٩

(٣) انظر : السابق ٤٠

(٤) انظر : السابق ٣١١

(٥) انظر : السابق ٦٦٩

(٦) انظر : السابق على الترتيب : ٤٠٨ و ٢٢ و ٢٣٩ ، وانظر في الحديث عن مصادره المعجمية : مقدمة محققي الكتاب : ٩

ت ٦٤٦ هـ) [١]، وثالثةً في البلاغة ؛ كمفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ) ، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير (ت٦٣٧هـ)[٢] ورابعةً في الفقه والأصول ؛ كالمبسوط في الفروع لأبي بكر السَّرَخْسى الحنفي (ت ٤٤٨ هـ) وكنز الوصول إلى معرفة الأصول لفخر الإسلام البَردَوي الحنفي(ت٤٨٢هـ) [٣] . وخامسةً في التفسير وعلوم القرآن ؛ كالكشاف للزمخشري ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت ٦٧١هـ) والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت ٩١١ هـ)[٤]. وسادسةً في الحديث ؛ كصحيح البخاري (ت ٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (ت ٢٦١ هـ)والجامع الصحيح وهو سنن الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) وفتح الباري لابن حجر (ت ٨٥٢ هـ)[٥] . وسابعةً في علم الكلام أو التوحيد ؛ كأصول التوحيد للآمدي (ت ٦٣١ هـ) ، والعقائد للنسفى (ت ٥٣٧ هـ) . والمواقف في علم الكلام لعبد الرحمن بن أحمد الأيجي (ت٧٥٦ هـ)[٦]. وثامنةً في الأديان والمذاهب ؛ كالملل والنحل لمحمد بن أبي القاسم الشهرستاني

(١) انظر : السابق على الترتيب : ٢٤٦ و ١٠٦٢ و ٧٦٨ .

(٢) انظر : السابق على الترتيب : ٦٧٦ و ٧٦٣

(٣) انظر : الكليات على الترتيب : ٥٩٤ و ٦٤٣

(٤) انظر السابق على الترتيب : ٩١ و ٣٤ و ٢٦١

(٥) انظر السابق على الترتيب : ٥٦٠ و ٦٩٦ و ٦١ و ٥٧٤

(٦) انظر السابق على الترتيب : ٥٢٥ و ٢٦١ و ٣٥٢

(ت٥٤٨هـ)[١] . وتاسعةٍ في إصلاح المنطق والكتابة ؛ كأدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)[٢] وعاشرة في الفلسفة والتراجم ؛ كالملخص في الحكمة لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) [٣]. إلى غير ذلك من الكتب ؛ مما يؤكد تنوع اتجاهات مصادر كتاب " الكليات " ، وقد اقتضى ذلك طبيعة موضوعه، كما تقدم .

وقد طبع هذا الكتاب مرارًا ؛ لأهميته وحفاوة الدارسين والقراء به ، فطبع ببولاق في سنوات : ١٢٥٣ هـ و ١٢٥٥هـ و ١٢٨١ هـ ، وباستانبول : ١٢٧٨ هـ و ١٢٨٦ هـ وبطهران : ١٢٨٤ هـ و١٢٨٦ هـ [٤] ، وطبع في خمسة أجزاء بتحقيق د/ عدنان درويش ومحمد المصري عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ١٩٧٤م وما بعدها ونشر بهذا التحقيق في مجلد واحد ضخم عن مؤسسة الرسالة ببيروت ، وهي الطبعة التي اعتمدت عليها.

---

(١) انظر السابق : ٧٠٩

(٢) انظر السابق : ١٦٥

(٣) انظر السابق على الترتيب : ٨٩٩ و ٥٥٨ ، وانظر للوقوف على كل ما ذكره الكفوي من كتب في الكليات : الفهرس الذي أعده المحققان لذلك بذيل الكتاب

(٤) انظر : تاريخ الأدب العربي بروكلمان (من القسم التاسع) ٤٤٨/١٣ وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣ / ٣٥٥ ومعجم المعاجم لإقبال ٤٩ – ٥٠ .

أسباب التطور الدلالي وأشكالـه

في دراسات السابقين من علمائنا ، مـا يُبَـيِّن أن تطور الدلالة ، أو تغير المعنى ، شغل حيِّزًا من تفكيرهم ؛ كما في صنيع ابن حَمْدَان الرازي (ت ٣٢٢هـ) الـذي ألف كتابًا مستقلاً يدور على مجموعة من الألفاظ تطورت دلالاتها ، هو كتاب " الزينـة فـي الكلمـات الإسـلامية والعربية " [١].

وفي القرن التاسع عشر زاد اهتمام اللغويين فـي أوروبا بهذه الدراسة [٢] . وحاول العلمـاء فـي القـرن العشرين تقعيد التغيرات التي تحدث للمعنى ، وتصـنيفها على أسس منطقية[٣] . لقد (رأى اللغوي الفرنسي أنطوان مييه Antoine Meillet أن هنـاك ثـلاث مجموعـات رئيسية من الأسباب التي تكمن خلفها تغيرات المعنى في العادة ، وهي أسباب لغوية وتاريخية واجتماعية) [٤].

---

(١) توجد لهذا الكتاب طبعة عن دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٧م في ثلاثة أجـزاء صـغيرة في مجلد واحد ، الأول والثاني بتحقيق د/ حسين بن فيض الله الهمداني ، والثالث بتحقيق د/ عبـد الله سلُّوم السامرائي .

(٢) انظر : موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ص ٢٦٧ تأليف : ر. هـ . روبنـز . ترجمـة د/ أحمد عوض .

(٣) انظر : علم الدلالة : د/ أحمد مختار عمر ٢٣٥

(٤) دور الكلمة في اللغة ١٧١، وقد كتب كثيرون بالتفصيل عن هذه الأسباب؛ مما يغـني عـن إعادتها هنا. انظر مثلا:علم اللغة د/ وافي ٣١٩ – ٣٢٥

واستطاع اللغويون ، بعد طول النظر فيما يطــرأ على المعاني من تغيرات ، في لغات كثيرة ، أن يحصروا هذه التغيرات في أنواع رئيســة تصــدق علــى جميــع اللغات[1] ، أهمها ثلاثة أشــكال : تخصــيص الدلالــة ، وتعميمها ، وانتقال مجالها[2].

وتغطى الأمثلة في " الكليات " للكفوي هذه الأشكال الثلاثة للتطور الدلالي ، وذلك كما يلي :

---

(١) انظر: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ٢٢٨ ، وذكر الدكتور السعران أن هذه الأشكال هي : انحطاط الدلالة ، ورقيها ، وتخصيصها ، وتعميمها، والتحول نحو المعاني المضــادة . انظــر : ٢٢٨ – ٢٣٢ من الكتاب المذكور .

(٢) انظر: التطور الدلالي د/ رمضان عبد التواب ١٩٤

المبحث الأول

تخصيص الدلالة

التخصيص مصطلح قديم في التراث العربي يعني : قَصْرُ الاسم على بعض مدلوله في اللغة[(١)] . وهذه دلالته عند المحدثين [(٢)]. ومن يطالع الكليات لأبي البقاء الكفوي يجد تطور المعنى بتخصيصه كان موضع عناية منه ، ويصور ذلك ما يأتي :

بهيمة

قال الكفوي : (كل حيٍّ لا عقل له ، وكل ما لا نُطْق له فهو بهيمة ؛ لما في صوته من الإبْهَام، ثم اختص هذا الاسم بذوات الأربع ، ولو من دواب البحر ما عدا السباع) [(٣)].

فهذا تخصيص للمعنى ؛ لأن اللفظ وضع في أصل اللغة لمعنى كلي يتناول أفرادًا كثيرة ، ثم صار لا يدل إلا على بعض أفراده . ولما كانت هذه الكلمة ذات دلالة عامة في الأصل ، قال تعالى: ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ**﴾[(٤)]، قال الزجاج : (وإنما قيل لها بهيمة الأنعام ، لأن كل حي لا يميز فهو بهيمة) [(٥)].

---

(١) انظر : الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ١/ ٥٤ ، والطراز للعدوي ١/ ٥٣

(٢) انظر : اللغة لفندريس ٢٥٧ – ٢٥٨ ودلالة الألفاظ د/ أنيس ١٥٤

(٣) الكليات (فصل الباء) ٢٢٦

(٤) سورة المائدة من الآية : ١

(٥) معاني القرآن ٢/ ١٤١ وعنه في التهذيب (بهم) ٦/ ٣٣٧ واللسان (بهم) ١/ ٢٦٥

وذكر الراغب ذلك التخصيص فقال : (البهيمة : ما لا نطق له ؛ وذلك لما في صوته من الإبهام ، لكن خص في التعارف بما عدا السباع والطير) [1] . كما ذكره عبد الرؤف المُناوي[2](ت١٠٣١هـ) ، وورد أيضا في المعجم الكبير [3].

ولم يأت في العين – أول معجم عربي – إلا المعنى المتطور ؛ مما يشير إلى أنه قديم في العربية ، وأنه استقر في الأذهان منذ زمن طويل ، يقول الخليل بن أحمد : (البهيمة : ذات أربع قوائمَ من دواب البر والبحر) [4] . وكذا في المحكم [5].

وانحدر اللفظ إلينا بهذا المعنى ، يقال في المعجم الوسيط : (البهيمة : كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر ما عدا السباع) [6]. وإن كانت الكلمة تستعمل عندنا الآن في دواب البر أكثر ، وخصوصا البقر والجاموس .

---

(١) المفردات (بهم) ٧٥

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ١٤٧

(٣) المعجم الكبير (بهم) ٦٣٩/٢

(٤) العين (بهم ٦٢/٤

(٥) المحكم (بهم) ٣٣٨/٤ ، والمعنيان في بعض المعاجم ، كما في القاموس (بهم) ٨١/٤ : (البهيمة : كل ذات أربع قوائم ولو في الماء ، أو كل حي لا يُميِّزُ) . وكذا في التاج (بهم) ٣٠٧/٣١

(٦) المعجم الوسيط (بهم) ٧٧/١

البيَـــــان

قال الكفوي : (البيَان ، في الأصل : مصدر بان الشيءُ ، بمعنى تَبَيَّن وظهر ، أواسم من "بَيَّن" كالسلام والكلام ، من كلّــم وسلّم ، ثم نقله العرف إلي ما يُتَبيَّنُ به من الدلالة وغيرها ، ونقله الاصطلاح إلى الفصاحة وإلى ملكة أو أصول يعرف بها إيــراد المعنى الواحد في صور مختلفة) [١].

فهذا تخصيص للدلالة في العرف العام ، وكذا في عــرف خاص بالبلاغيين [٢]. إذ البيان موضوع في أصل اللغة لمعنـــى عام ، بدأ به الكفوي كلامه ، وهو ظهور أي شيء وكشفه مطلقا. وذلك ما تذكره المعاجم ؛ يقال : (بان الشيءُ بَيَانًا: اتضح) [٣]. و (البيَان ... أصله الكشف والظهور) [٤].

ثم خص في العرف العام بما يظهر بــه المعنـــى فقــط ، بالدلالة اللفظية وغيرها ، كدلالـــة الإشــارة ، ودلالـــة الحـال أوالهيئة . وذلك ما يقصده الكفوي بقوله : (... مــا يُتَبَــيَّنُ بــه من الدلالة وغيرها) .

---

(١) الكليات (فصل الباء) ٢٣٠

(٢) عرَّف الكفوي العرف العام : بأنه جماعة كثيرة لا يتعين فيه الواضع ، أي لا يستند إلى طائفة مخصوصة . وعرّف الخاص بأنه : اصطلاح كل طائفة مخصوصة، كــالرفع للنحــاة . انظــر الكليات (فصل العين) ٦١٧

(٣) الصحاح (بين) ٥ / ٢٠٨٣ واللسان (بين) ٢٨٤/١ والتاج (بين) ٢٩٧/٣٤

(٤) النهاية (بين) ١٧٤/١ واللسان (بين) ١٨٤/١ والتاج (بين) ٣٠٤/٣٤

وقد عرَّف الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) البيان بذلك فقال : (البيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائنًا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل) (١). وفي اللسان : (البيان : ما بُيِّن به الشيء من الدلالة وغيرها) (٢).

وعمد الجاحظ بعد ذلك إلى ما يكون به بيان المعنى وكشفه ، فحصر أنواع الدلالة على المعاني وعدّدها فقال : (وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نِصْبَة) (٣).

ومن دلالة البيان على كشف المعنى باللفظ ، قوله عز وجل : ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ*عَلَّمَهُ البَيَانَ**﴾(٤) قيل : (هو التعبير عما في الضمير ، وإفهام الغير لما أدركه) (٥) الإنسان .

---

(١) البيان والتبيين ٧٦/١

(٢) اللسان (بين) ٢٨٣/١

(٣) البيان والتبيين ٧٦/١ والعَقْد : طريقة معروفة تواطأت عليها العرب في عقود الحساب ، وهي أنواع من الآحاد والعشرات والمئين والألوف ، تكون بعَقْد بعض أصابع اليد وبسطها .
انظر : عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق العظيم آبادي ١٦٧/٣ – ١٦٨

(٤) سورة الرحمن : ٣ ، ٤

(٥) أنوار التنزيل ٤٥١/٢

فالبيان ضاقت دلالته في العرف العام عما وضع له في اللغة .

وضاقت دلالته كذلك في الاصطلاح الذي ذكره الكفوي ، وهو اصطلاح البلاغيين كما تقدم ، ويقول السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) : (وأما علم البيان : فهو معرفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان) (١) : من الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية .

وهذا التضييق لدلالة البيان أكبر من سابقه في العرف العام ؛ إذ يُكشف فيه عن المعنى باللفظ فقط .

وجدير بالذكر أن هذا المصطلح البلاغي ، لم يكن بهذا المعنى منذ نشأته الأولى ، بل كان يرادف كلمة البلاغة ، وتداخل مع علم المعاني واستوعب بعض مباحثه في بعض الأحيان ، ويذكر أن السكاكي هو أول من قسم علوم البلاغة الأقسامَ الثلاثة المعروفة : البيان والمعاني والبديع ، وأخذت على يديه المصطلحات ذلك التطور المستقر حتى الآن (٢).

ونعلم من ذلك أن تطور دلالة البيان في العرف كان العام أسبق من تطوره في العرف البلاغي.

الجماع :

---

(١) مفتاح العلوم ١٦٢

(٢) انظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب (البيان) ١/٤٠٦ – ٤٠٩

ذكر الكفوي أن (الجماع : الموافقة والمساعدة في أي شيء كان . وجامعناكم على كذا . وافقناكم ، لكنه لما كثر استعماله في الاجتماع الخاص عند الإضافة إلى النساء صار صريحًا لا يفهم غيره ، وينصرف إليه بلا نية) (١).

فهذا تخصيص دلالي ، وقد بيَّن الكفوي أن ذلك التطور سببه كثرة استعمال الجماع في بعض ما يدل عليه في أصل اللغة ، وأن هذا المعنى صار هو المتبادر منه عند الإطلاق ؛ فلا يفهم غيره ، ولا يلزم تعرُّف نية المتكلم بذلك ، أيقصده أم لا .

وفي معجمات اللغة : (جامَعها مُجَامعةً وجِمَاعًا : نكحها ... وجَامَعَهُ على الأمر : مالأَهُ عليه واجتمع معه . والمصدر كالمصدر (٢). وقِدْرٌ جِمَاعٌ وجامِعَةٌ : عظيمة ، وقيل هي التي تجمع الجَزُورَ ... ويقال : فلان جِمَاعٌ لبني فلان ، إذا كانوا يأوُون إلى رأيه وسُودَدِهِ) (٣). مما يشير إلى أن هذه الكلمة

---

(١) الكليات (فصل الجيم) ٣٥٤

(٢) أي أن مصدره كمصدر جامع امرأته وهو الجِمَاع ، ومعنى : ما لأَهُ عليه : ساعده عليه وشايعه (انظر : اللسان " ملأ " ٨٤/٦) فهو كالمعنى الذي ذكره الكفوي ، وهذا يكون بالاجتماع معه والانضمام إليه ، كما في بقية نص اللسان ، وكما يتفق مع الأصل في دلالة هذه المادة (ج م ع)؛ إذ تدور حول معنى (تَضَامّ الشيء) ، كما يذكر ابن فارس في المقاييس (جمع) ٤٧٩/١

(٣) اللسان (جمع) ٤٥٩/١ ، وانظر (جمع) في : الجمهرة ٤٨٤/١ والصحاح ١٢٠٠/٣ والتاج ٤٦٦/٢٠

دلالتها عامة في الأصل ، وليست خاصة بالاتصال الشهواني بين الرجل والمرأة [١].

ومن شواهد هذا التخصيص الدلالي : قول السيدة عائشة – رضي الله تعالى عنها – : (... **فأَشْهَدُ على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يصبح جُنُبًا من جِمَاعٍ غير احتلام ، ثم يصوم ذلك اليوم**) [٢].

وتشيع كلمة الجماع بهذه الدلالة في الاستعمال اللغوي المعاصر .

الحَمَـــــام

ذكر الكفوي أن (الحَمَام ، كالهَوَان : الدَّواجِن فقط عند العامة . وعند العرب : هي ذوات الأَطْوَاق ، من نحو القَمَــارِيِّ والفَوَاختِ والوَرَاشِين وأشباه ذلك) [٣].

فهذا تخصيص دلالي في لغة العامة ؛ فالدواجن من أصناف الحمام عند العرب . وقد ذكر هذا التطور : ابن قتيبة [٤]

---

(١) انظر تعريف الجماع بهذا في المعجم الوسيط (جمع) ١/١٤٠

(٢) موطأ الإمام مالك ١١٧ كتاب الصيام – باب الرجل يطلع له الفجر في رمضان وهو جنب ، حديث رقم ٣٥١

(٣) الكليات (فصل الحاء) ٤٠٤

(٤) أدب الكاتب ٢٥

والجوهري وابن الجوزي[1] والفيومي [2]. ويبدو أن الكفوي نقل كلامه عن بعض هؤلاء ، ولا يقصد بالعامة عامة أهل زمانه في القرن الحادي عشر الهجري .

يقول الجوهري : (الحَمَام عند العرب : ذوات الأَطْوَاق ، من نحو الفَوَاخِت والقَمَارِيّ وسَاقِ حُرٍّ والقَطَا والوَرَاشِين وأشباه ذلك ... وعند العامة : أنها الدواجن فقط)[3]. ونقل ذلك عنه : ابن منظور والدميري (ت ٨٠٨ هـ) والزَّبيدي [4].

ولعل ذلك التخصيص يرجع إلى أن الدَّوَاجن في اللغة : هي ما ألف البيوت من طير وحيوان، من دَجَن بالمكان ، إذا أقام به [5] . فخصت العامة بالحمام ما يألف بيوتها ، ويُربى فيها من الطيور، وهي الدواجن ، دون الوحشي الذي لا يألف البيوت منها

---

(١) تقويم اللسان ٩٥ وإن كان ابن الجوزي قد رصد ذلك هو وابن قتيبة على أنه من أغلاط العامة ، وليس تطورًا طبيعيًا .

(٢) المصباح المنير (حمم) ١٥٢/١

(٣) الصحاح (حمم) ٥ / ١٩٠٦

(٤) اللسان (حمم) ١٦٤/٢ وحياة الحيوان ٣٦٥/١ والتاج (حمم) ٣٢/٦-٧

(٥) في التهذيب (دجن) ٦٦١/١٠ (دَجَنَ في بيته إذا لزمه ، وبه سُمِّيت دواجنُ البيوت ، وهي ما أَلِفَ البيت من الشاء والطير وغيرها). وانظر المعجم الوسيط (دجن) ٢٨١/١

، كالقَمَارِيّ ، وتعرفه العرب في الصـــحراء، ولا يعــرف فـــي الأمصار [١].

وكان من الصعب أن يظل ذلك المعنى العام لكلمة الحَمَام ثابتًا دون تغير يطرأ عليه ، على مر العصور ، مـــع اخـــتلاف البيئات ، وتعدد الأصناف الداخلة تحت مفهوم الكلمة .

ومما يشير إلى أن هذه الكلمة ذات دلالة عامة عند العرب ، قول (حُمَيْد بن ثَوْر الهلاَلي :

وَمَاهَاجَ هَذَا الشَّوْقَ إلاَّ حَمَامَةٌ دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرَنُّمَا[٢]

والحمامة ها هنا قُمْرِيَّةٌ

وقال الأصمعي في قول النابغة

وَاحْكُمْ كَحُكْم فَتَاةِ الحَيِّ إذْ نَظَرَتْ إِلىَ حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ[٣]

هذه زَرْقَاءُ اليَمَامة نظرت إلى قَطَـاً ....) [١]. فإنهـا أطلقت على قُمْرِيَّة وقطا . وفي الحيوان للجـاحظ أن (العـرب

---

(١) ومما يدل على أن اختلاف البيئة له أثر في اختلاف الدلالة ، ما يروى من أن (الأَيْهَمَانِ عند أهل البادية : السيلُ والجملُ الهائج ... وعند أهل الأمصار السيلُ والحريقُ) الصحاح (يهم) ٢٠٦٥/٥ ، وانظر اللسان (يهم) ٥٢٤/٦

(٢) البيت من الطويل في ديوانه (ق ٧٨/١) ص ٢٤ والحيوان ١٩٧/٣

(٣) البيت من البسيط في ديوان النابغة الــذبياني (ق ٣٢/١) ص ٢٣ والحيــوان ٢٢١/٣ ، والشِّراع : القاصدة إلى الماء . والثَّمَد : الماء القليل الذي لا مادّ له . انظر: اللسان (شــرع) ٤٢٢/٣ و (ثمد) ٣٤٦/١

تسمى هذه الأجناس كلها حَمَاما فجمعوها بالاسم العام ، وفرَّقوها بالاسم الخاص)[٢].

وواقع هذه الكلمة في العربية المعاصرة ، يؤكد ما تقدم من القول بصعوبة احتفاظها بدلالتها العامة ، مع كثرة الأصناف الدالة علهيا ؛ فهي اليوم خاصة بصنف واحد منها ، بل ببعضه ، كما في لهجة أهل العراق ؛ يقول الدكتور محمد سليم النعيمي تعليقًا على تعريف دوزي (ت ١٨٨٣م) للحمام: (أهل العراق اليوم يفرقون بين أصناف الحمام ، ويطلقون اسم الحمام على الحمام الطُّورَانيّ [٣] فقط، ولا يسمون الفَوَاخِت واليَمَام والقَمَارِيّ حمامًا . كما أنهم يسمون الحمام الذي يلعب به وتتخذ له البروج طُيُورًا ، واحدها طَيْر ، ويسمونه في مصر بالحمام) [٤].

فأهل مصر اليوم يخصون بالحمام صنفا من الطير يألف البيوت وتتخذ له البروج ، تعرف صغاره بالزَّغَالِيل ، جمع زُغْلُول . ويعنون بالدواجن البَطّ والأَوِزّ والدَّجَاج .

---

(١) الصحاح (حمم) ١٩٠٦/٥ واللسان (حمم) ١٦٤/٢

(٢) الحيوان ٢٠١/٣

(٣) حمام طُورَاني : منسوب إلى طُورِ سَيْناء ، أو إلى جبل يقال له طُرْآن ، نسب شاذ . انظر : اللسان (طور) ٢٠٣/٤

(٤) تكملة المعاجم العربية (حمم) ٣ / ٢٩٨ حاشية رقم : ٥٦٨

الشِّعْــــر

قال الكفوي : (شَعَرْت ، بفتح العين : بمعنـــى علمــت : وشَعُرْتُ ، بضمها : بمعنى صرت شاعرًا .... والشِّعر ، بالكسر : غلب على منظوم القول ؛ لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل عِلْم شِعْرًا) [(١)].

فهذا تخصيص دلالي ، وقد ذكره بعض اللغويين ، كـــابن سيده إذ قال : (الشعر : منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية ، وإن كان كل عِلْم شِعْرًا ، من حيث غلب الفقه على علم الشَّرْع ، والعُودُ على المَنْدَل ، والنجم على الثُّرَيّا ؛ ومثـــل ذلـــك كثير) [(٢)].

كما ذكــره الراغــب وابــن منظــور والفيروزآبــادي والزبيدي[(٣)].

ولا يخفى أن تخصيص الشعر بالكلام الموزون المقفـــى ، أمرٌ قديم معروف من العصر الجاهلي ، الذي كان يســمى هــذا الضرب من القول شِعْرًا ، وصاحبَه شاعرًا ، كما في قول طرفة بن العبد مثلا يعرّض بمن ينتحل شعر غيره.

---

(١) الكليات (فصل الشين) ٥٣٧

(٢) المحكم (شعر) ٢٢٣/١

(٣) المفردات ٢٩٤ واللسان ٤٤٢/٣ وبصائر ذوي التمييز ٣٢٣/٣ والقاموس ٥٨/٢ والتاج ١٧٨/١٢ (شعر)

وَلا أُغيرُ عَلَى الأَشْعَار أَسْــرِقُهَا عَنْهَا غَنِيتُ وشَرُّ الناسِ مَنْ سَرَقَا(١)

وقول عنترة بن شداد أيضا:

هَلْ غادرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ(٢)

كما ورد اللفظ في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **وَمَــا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ (٣).

وهذا هو معناه المعروف له الآن .

الصاحِب

قال الكفوي : (الصاحب مشتق من الصُّحبة ، وهي وإن كانت تعم القليل والكثير ، لكن العرف خصها لمن كثرت ملازمته ، وطالت صحبته) (٤).

فالصاحب ضاق معناه في العرف ؛ حيث يطلق في اللغة على كل من اجتمع ، مع غيره ولزمه قليلا كان أو كثيرا ، يقول تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّـــةٍ** ﴾ (٥). والنبـــي محمد – صلى الله عليه وسلم – لزم قومه قبل البعثة ، ولبث بينهم

---

(١) البيت من البسيط في ديوانه ٧٠

(٢) مطلع معلقته ، والبيت من الكامل في ديوانه ١٨٨ وشرح القصائد السبع لابن الأنباري (ق ١/٤) ص ٢٩٤

(٣) سورة يس من الآية ٦٩

(٤) الكليات (فصل الصاد) ٥٥٨

(٥) سورة الأعراف من الآية : ١٨٤

دَهرًا طويلاً ؛ ولذلك استعمل القرآن كلمة صاحب ؛ بنـــاءً علـــى أنهم يعرفونه جيدًا ، مما ينفي عنه ما قالوه في حقه صلى الله عليه وسلم ، من هذا الزعم الباطل .

ويقول سبحانه حكاية عن يوسف عليـــه الســـلام : ﴿ **يَـــا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّـــارُ** ﴾ [(١)]. (يريد صاحبيَّ في السجن ، ويحتمل أيضا أنه لما حصـــلت مرافقتهما في السجن مدة قليلة أضيفا إليه) [(٢)].

وفي سورة القلم : ﴿ **وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الحُوتِ إِذْ نَـــادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ** ﴾ [(٣)]. ويونس عليه السلام لم يلبث في بطن الحوت كَثَيرًا.

كما ذكر ابن فارس أن الأصل الدلالي لهذه المادة هـــو (مقارَنة شيء ومقاربته) [(٤)]. وهذا معنى عام لا قيد فيه .

ثم تغير هذا المعنى في العرف – على مـــر العصـــور – على نحو ما ذكره الكفوي ، ويقول الراغب كذلك : (الصاحب : الملازم ، إنسانًا كان أو حيوانًا ، أو مكانًا أو زمانًا ، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن – وهو الأصل والأكثر – أو بالعنايـــة

---

(١) سورة يوسف من الآية : ٣٩

(٢) مفاتيح الغيب ٥٧/٩

(٣) سورة القلم من الآية : ٤٨

(٤) المقاييس (صحب) ٣٣٥/٣

والهمة ... ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته) [(١)]. وذكر هذا التطور أيضا الفيروزآبادي [(٢)] وعبد الرؤف المناوي [(٣)].

ويشيع هذا المعنى للصاحب في الاستعمال اللغوي المعاصر ، وتقترب دلالته من دلالة الصديق ، الذي يطلق على الصَّفِيّ كثير الملازمة .

ومن أمثال العامة : (" صَاحِبْ وِمَالْ مَا يِتِّفْقْشْ " أي من اختار مصاحبة شخص ومصادقته لا ينبغي له أن ينظر إلى ما يعود عليه من النفع من ماله . فالصداقة غير المال وإن كانت صداقة غير خالصة مبنيّة على غرض) [(٤)]. فالصاحب هنا في معنى الصديق .

ولم يتعرض لهذا التطور المعجم الوسيط ، واكتفى بأن (الصاحب : المرافِق) [(٥)] . ويتفق هذا التعريف للصاحب مع دلالته اللغوية.

---

(١) المفردات (صحب) ٣٠٨

(٢) البصائر (صحب) ٣٨٦/٣

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ٤٤٥

(٤) الأمثال العامية لأحمد تيمور ٢٩٢ (مثل رقم ١٧٢١).

(٥) المعجم الوسيط (صحب) ٥٢٦/١

الصحابة

ذكر الكفوي أن (الصحابة ، في الأصل مصدر ، أطلق على أصحاب الرسول ، لكنها أخص من الأصحاب ؛ لكونها بغلبة الاستعمال في أصحاب الرسول كالعَلَم لهم ؛ ولهذا نسب الصحابيّ إليها بخلاف الأصحاب)[1].

اقتصار الكفوي على أن كلمة الصّحابة في الأصل مصدر ، غير دقيق [2]؛ لأن (الصحابة إما مصدر صحب كسمع ، وإما جمع صاحب)[3]. يقول ابن سيده : (صَحِبَه صُحْبة وصِحَابةً وصَحَابةً ... والجمع أصحاب ... وصِحَابة وصَحَابة)[4].

وتقتضي هذه الدلالة اللغوية العامة ، أن تطلق كلمة صَحابة على كل من صحِب غيره واجتمع معه ، ولكنها غلبت على أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – وصارت كالعَلَم لهم ، تخصهم وحدهم ، كما ذكر الكفوي .

ومعلوم أنه حدث هذا التخصيص لدلالة الكلمة بعد الإسلام في عصر النبوة ، حيث جرى استعمالها آنذاك للإشارة إلى ذلك

---

(١) الكليات (فصل الصاد) ٥٥٨

(٢) علمًا بأن هذا في بعض معجمات اللغة أيضا ، كالصحاح ، يقول الجوهري (صحب) ١٦١/١ : (والصَّحابة ، بالفتح : الأصحاب ، وهي في الأصل مصدر) .

(٣) معجم مصطلح الحديث النبوي ، إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة (صحابة) ٤٦

(٤) المحكم (صحب) ١١٩/٣ ، وانظر : اللسان (صحب) ١٥/٤

الجيل العظيم من المؤمنين ؛ كما في قوله – صلى الله عليه وسلم –: " خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ ، وخير السَّرَايَا أربعمائة ... " (١).

وقول ابن عباس – رضي الله عنهما : " ... **كان صَحَابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يَتَّبِعُون الأَحْدَثَ فَالأَحْدَثَ مِنْ أَمْرِه** " (٢).

وصار هذا المعنى هو السابق إلى الأذهان إذا قيل صَحَابة ، أو نسب إليها فقيل صحابيّ . يقول الجرجاني : (الصَّحابيُّ : هو في العرف : مَنْ رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – وطالت صحبته معه ، وإن لم يَرْوِ عنه ، صلى الله عليه وسلم . وقيل : وإن لم تطل) (٣) صحبته .

ويقول ابن حجر : (الصَّحَابيُّ من لقى النبي – صلى الله عليه وسلم – مؤمنًا به ومات على الإسلام) (٤) . وذكر التهانوي أن هذا هو معناه عند أهل الشرع (٥) ، أو في اصطلاح علماء الحديث، كما في معجم مصطلح الحديث النبوي (٦).

---

(١) رواه الترمذي في سننه ٤/١٠٦ عن ابن عباس في كتاب السِّيَر – باب (٧) ما جاء في السَّرَايَا حديث رقم : ١٥٥٥

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام – باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر (صحيح مسلم بشرح النووي ٧/٢٣١).

(٣) التعريفات (الصحابي) ١٧٣

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ١/٥٠

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون (الصحابي) ٢/١٠٦٠

(٦) معجم مصطلح الحديث النبوي (صحابة) ٤٦ وانظر : المعجم الوسيط (صحب) ١/٥٢٧

الاعتـــداء

قال الكفوي : (الاعتداء : هو مجاوزة حدٍّ ما ، وذلك قـد لا يكون مذمومًا ، بخلاف الظلم ، فإنه وضع الشيء في الموضع الذي لا يحق أن يوضع فيه . وقيل : هو فـي أصـل وضـعه : تجاوز الحد في كل شيء ، و[عُرِف] [1]في الظلم والمعاصـي) [2].

وهذا الكلام بنصه في تفسير القرطبي ، حيـث قـال: (الاعتداء : تجاوز الحد في كل شيء وعُرِفَ في الظلم والمعاصي) [3].

ومقتضى هذا تخصيص دلالة الاعتداء ؛ إذ قـد يسـتعمل أيضا بحسب وضعه اللغوي في مجاوزة حد المباح ، وليس فيمـا هو في أصله ظلم ومعصية فقط ، كالإفراط في العبادات والزهد ، يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) : (وقوله : ﴿ **لاَ تَعْتَـدُوا** ﴾ [4]

---

(١) في المطبوع من الكتاب : (عرفه) ، والتصويب من تفسير القرطبي ٤٣٢/١

(٢) الكليات (فصل الألف والعين) ١٥٠

(٣) تفسير القرطبي ٤٣٢/١ (في تفسير قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة : ٦١)

(٤) أي قوله تعالى في سورة المائدة آية : ٨٧ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَات مَا أَحَـلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ . قال ابن تيمية : (اشـتهر في التفسـير أن هذه الآية نزلت بسبب الذين أرادوا التبتل من الصحابة ، مثل عثمان بـن مَظْعُـون والـذين اجتمعوا معه) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٤٨/١٤ – ٤٤٩

فيمن قال : أقوم لا أنام ، وقـال : أصـوم لا أُفْطـر [1] ؛ لأن الاعتداء : مجاوزة الحد فهذا مجاوز للحد في العبادة المشروعة ، كالعُدْوَان في الدعاء في قوله : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ** ﴾ [2] وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " **سيكون قومٌ يَعْتَدُونَ في الدعاءِ والطهورِ** " [3] فالاعتـداء فـي العبادات وفي الورع كالذين تحرَّجُوا من أشياء ترخص فيها النبي – صلى الله عليه وسلم – وفي الزهد كالذين حرموا الطيبات) [4] وإن كان في هذا ظلم ومعصية .

مما يؤكد أن الكلمة في اللغة تستعمل في تجاوز حـد أي شيء . ويقول الطبري كذلك : (الاعتداء: أصله تجاوز الحد فـي كل شيء) [5].

---

(١) في مسند الإمام أحمد ٣/٢٤١ حديث رقم ١٣٥٥٨ " أن نفرًا من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – قال بعضهم : لا أتزوج ، وقال بعضهم : أصلي ولا أنام ، وقال بعضهم : أصوم ولا أفطر "

(٢) سورة الأعراف : ٥٥

(٣) رواه أبو داود في سننه ١/ ٢٤ عن عبد الله بن مغفل – كتاب الطهارة – باب الإسراف في الماء ، حديث رقم : ٩٦ ولفظه : " إنه سيكون في هذه الأمة قوم يَعْتَدُون في الطهور والدعاء " .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ١٤/٤٤٩

(٥) تفسير الطبري ١/ ٢٦١ (في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ البقرة : ٦٥)

كما قال : (الاعتداء : تجاوز الحد الذي حده الله لعباده إلى غيره ، وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه) [١] .

والمادة في جملتها تدل على هذا أصلا ، يقول ابن فارس : (العين والدال والحرف المعتل أصل واحد صحيح يرجع إليه الفروع كلها ، وهو يدل على تجاوُز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه) [٢].

ويشيع في العربية المعاصرة استعمال الاعتداء ومشتقاته في الظلم والمعاصي .

العَرْفُ

ذكر الكفوي أن (العَرْف : الريح طيبة كانت أو منتنة ، وأكثر استعماله في الطيبة) [٣].

فهذا تخصيص للمعنى ، وقد ذُكر هذا أيضا في القاموس والتاج والمعجم الوسيط [٤].

---

(١) نفسه ١/٢٥١ – ٢٥٢ (في تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة : ٦١)

(٢) المقاييس (عدو) ٤/٢٤٩

(٣) الكليات (فصل العين) ٦٥٦

(٤) القاموس المحيط (عرف) ٣/١٦٨ والتاج (عرف) ٢٤/١٣٤ – ١٣٥ والمعجم الوسيط (عرف) ٢/٦١٧

ولم يذكر الخليل في تفسير العَرْف غير أنه (ريح طيّب ، تقول ما أطيب عَرْفَه) [١] ! وكذا ابن فارس [٢] ، مما يشير إلى أن هذا التطور قديم ، وأنه صار الأكثر في الاستعمال ، والأقرب إلى الأذهان .

بينما التزمت بعض المعجمات بالنص على المعنى الأصلي للعَرْف – وهو معنى عام – كما في التهذيب والصحاح والمحكم واللسان ، قال الأزهري : (وقال ابن الأعرابي : العَرْف : الرائحة، تكون طيبة وغير طيبة) [٣].

ومما يدل على هذا قول الأَعْلَم الهذلي أخو صخر الغَيّ في الرائحة المُنْتِنة:

ولَعَمْرُ عَرْفِك ذِي الصُّمَاخِ كمَا عَصَبَ السِّفادُ بغَضْبَهِ اللِّهْمِ[٤]

أي : رِيحُكِ ذو النَّتْن[١].

---

(١) العين (عرف) ١٢٢/٢

(٢) المقاييس (عرف) ٢٨١/٤

(٣) التهذيب (عرف) ٣٤٦/٢ ، وانظر : الصحاح ١٤٠٠/٤ والمحكم ٨٠/٢ واللسان ٣١١/٤ (عرف)

(٤) البيت من الكامل في شرح أشعار الهذليين ٣٢٤/١ ، ونسب للبُرَيْق الهذلي مع خلاف يسير في بعض الألفاظ في : المحكم ٨٠/٢ واللسان ٣١١/٤ والتاج ١٣٤/٢٤ (عرف) وهو من شواهدها على هذا المعنى .

وعَصَبَ : ضَمَّ . والسِّفَادُ : نَزْوُ الذكر على الأنثى . والغَضْبَة جِلْدُ المُسِنِّ من الوُعُول حين يُسْلَخ . واللِّهْم : الوَعِل المُسِن . انظر : اللسان (عصب) ٣٤٧/٤ و(سفد) ٢٩٤/٣ و(غضب) ٤٠/٥ و(لهم) ٥٣٠/٥

يريد أن يشبه هذه الرائحة المنتنة برائحة الوَعِل إذا نَزَا ، فإن (الوَعِل إذا اهتاج شمل النَّتْنُ ما بين ظُلْفه إلى فَرْوة رأسه) . شرح أشعار الهذليين للسكري ٣٢٥/١

وقيل في الرائحة الطيبة:

ثَنَاءٌ كعَرْفِ الطِّيبِ يُهْدَى لأَهْلِهِ وَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ بَنِي خَالِدٍ أَهْــلُ(٢)

وقوله عز وجل : ﴿ **وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ (٣) ، (أي طَيَّبَها وزَيَّنَها) (٤) وقيل: أي (بيّنها لهم وعــرفهم منــازلهم) (٥). كما قال صلى الله عليه وسلم عن دم الشهيد يوم القيامــة : " ... **اللَّوْنُ لَوْنُ الدمِ والعَرْفُ عَرْفُ المِسْكِ** " (٦).

وكلمة العَرْف هذه ليست سائرة في الاســتعمال اللغــوي المعاصر ، وتشيع دونها كلمة رائحة ، ومعناها عام ، وتخصص بالوصف ، فيقال : رائحة طيبة ، ورائحة منتنة .

اليقطين

---

(١) انظر : شرح أشعار الهذليين ٣٢٤/١

(٢) البيت من الطويل ، وهو من شواهد المحكم ٨٠/٢ واللسان ٣١١/٤ والتــاج ١٣٤/٢٤ (عرف)

(٣) سورة محمد : ٦

(٤) الجمهرة ٧٦٦/٢ والمفردات ٣٧٠ وبصائر ذوي التمييز ٥٧/٤ (عرف)

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢١٤/٢ ، وانظر في هذين القولين : التهذيب (عــرف) ٣٤٥/٢ والكشاف ٣١٨/٤ وتفسير البيضاوي ٤٠١/٢ واللسان (عرف) ٣١١/٤ وغرائب القرآن للنيسابوري ٢٨/٢٦ والتاج (عرف) ١٥١/٢٤-١٥٢

(٦) جزء من حديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري – كتاب الوضوء باب (٦٧) ما يقــع من النجاسات في السَّمْن والماء ، حديث رقم : ٢٣٧ (فتح الباري ٤١١/١) .

قال الكفوي في تفسير اليقطين : (كل شـــيء ينبــت ثــم يموت من عامه ، فهو يقطين ، والعامة تخص بهذا الاسم القَــرْعَ وحده) [١].

فهذا تخصيص دلالي ، في مستوى لغوي معــين ، هــو مستوى العامة ، ولعل الكفوي نقل ذلك عن " تقويم اللسان " لابن الجوزي [٢] ؛ لاتفاق النصين تماما.

وقد ذكر ابن البَيْطَار كذلك (ت ٦٤٦ هــ) أن العامــة تخصه بهذا ، قال : (يقطين هو عند العامة : القرع ، ومن اللغة : يقال على كل شجر لا يقوم على ساق ؛ مثل اللَّبْلاَب ، ونحوه) [٣].

وذُكر هذا التطور أيضًا في : المصباح وتكملة المعــاجم العربية والمعجم الوسيط ، ولكن دون أن يقيّــد بالعامــة ، قــال الفيومي : (اليقطين : يَفْعِيل وهو عند العرب كل شجرة تتبســط

---

(١) الكليات (فصل الياء) ٩٧٨

(٢) تقويم اللسان ١٨٩ ، مع ملاحظة أن ابن الجوزي يذكره على أنه خطأ ، وليس تطورا طبيعيا .

(٣) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٥١٩/٤ وعنه في تكملــة المعــاجم العربيــة لدوزي (قطن) ٣٢٩/٨ بخلاف يسير .

وابن البَيْطَار هو ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي ، إمام النباتيين وعلماء الأعشــاب ، ولد في مالقة ، وتعلم الطب ، ورحل إلى بلاد الأغارقة ، ودخل مصر ، من كتبه : المغني في الأدوية المفردة ، وميزان الطبيب ، توفى بدمشق سنة ٦٤٦ هــ (الإعلام ٦٧/٤) .

على وجه الأرض ، ولا تقوم على ساق ... لكن غلب استعمال اليقطين في العُرْف على الدُّبّاء وهو القرع) [1].

ولا فرق بين أن يقال في تعريف اليقطين: هو كل شيء ينبت ثم يموت من عامه - وهو تعريف لسعيد بن جُبَيْر [2] (ت ٩٤ هـ) - وبين أن يقال : هو كل شجر انبسط على وجه الأرض[3] ، أو ما لا ساق له من النبات [4] ، أو كل شجر لا يقوم على ساق [5] ؛ فإن هذا يموت من عامه ، ولا يبقى طويلا .

وتغير هذا المعنى العام بالتخصيص كما رأينا - يؤكد ما تقدم من أنه يصعب أن تحتفظ كلمة تشير إلى أنواع ، أو أصناف كثيرة ، بمدلولها العام ، على مر العصور ، مع اختلاف الظروف في جماعة لغوية عنها في جماعة أخرى .

---

(١) المصباح المنير (قطن) ٢/٥٠٩-٥١٠ ، وانظر : تكملة المعاجم العربية لدوزي (قطن) ٨/٣٢٩ - ٣٣٠ والمعجم الوسيط (قطن) ٢/٧٧٦

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٦٥ والتهذيب (قطن) الجزء المستدرك على الأجزاء ٧ و ٨ و ٩ ص ٢٧٤ وتقويم اللسان ١٨٩ واللسان (قطن) ٥/٢٨٨ والتاج (قطن) ٣٦/٦

(٣) فُسِّر بهذا أيضا في الجمهرة (أبواب اللفيف باب يَفْعِيل ٣/١٢٤٥)

(٤) فُسِّر بهذا أيضا في الصحاح ٦/٢١٨٣ والقاموس ٤/٢٥٥ والتاج ٣٦ ٥-٦ (قطن)

(٥) المحكم (قطن) ٢/٢٨٤ والمخصص - كتاب النخل سفر ١٢ جـ ٣ / ٢٨٤ واللسان (قطن) ٥ / ٢٨٨

وقد سمى هذا النبات يقطينا ؛ لأنه يمتد على وجه الأرض ، من قَطَن بالمكان ، إذا أقام به . انظر : معاني القرآن للزجاج ٤/٣١٤ والبحر المحيط ٩/١١٥

ويفهم من إحدى الروايات ، أن هذا التطــور كانــت لــه مقدمات وبوادر قديمة ؛ قال الفراء في تفسير قولــه تعــالى : ﴿ **وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ** ﴾ [(١)]: (قيل عند ابن عباس : هو وَرَقُ القَرْع ، فقال : وما جَعَلَ ورق القرع من بين الشجر يقطينًا ؟ كل ورقة اتسعتْ وسترتْ فهي يقطين) [(٢)]. ورواية الطبري : (عن ابن عباس قال : ﴿ **شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ** ﴾ . فقــالوا عنــده : القرع : قال وما يجعله أحق من البِطِّيخ) [(٣)] ؟!

فحمل اليقطين على القرع ، كان هو السابق إلــى أذهــان هؤلاء ممن كانوا عند ابن عباس ؛ مما يشير إلى غلبة هذا المعنى على بقية المعاني .

على أن ابن عباس فسر اليقطين بالقرع في رواية أخرى [(٤)].

ولعل مما يشير إلى شيوع هذا التطور في العــرف ، أن الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـــ) في كتاب :" العَسَل " لــم يطلــق اليقطين إلا على القرع وحده ؛ جاء في المزهر : (ليس في كلام العرب اسم يَفْعِيل سوى يَعْضيد لنوع من الشجر ، ويقطين لشجر

---

(١) سورة الصافات : ١٤٦

(٢) معاني القرآن ٢/٣٩٣ ، وعنه في التهذيب (قطن) الجزء المستدرك على الأجزاء ٧ و ٨ و ٩ ص ٢٧٤ ومفاتيح الغيب ١٣/٢٦٦ واللسان (قطن) ٥/٢٨٨ والتاج (قطن)٦/٣٦

(٣) تفسير الطبري ٢٣/٦٥

(٤) نفسه ٢٣/٦٥-٦٦ والبحر المحيط ٩/١٢٤ وروح المعاني ١٢/١٤٠

القرع ... ذكره صاحب القاموس في كتاب العسـل) [(١)]. أو أن الفيروز آبادي صنع هذا ؛ لأنه يُتخذ من القرع عسل ، من بـين أنواع اليقطين الأُخر. وكلمة اليقطين هذه غير مألوفة هي الأخرى في الاستعمال اللغوي المعاصر .

الكتــــاب

قال الكفوي : (الكِتَاب قد غلب في العرف العام على جَمْع من الكلمات المنفردة بالتدوين . وفي عرف النحويين غلب علـى كتاب سبيويه . وفي عرف الأصوليين غلب على أحد أركان الدين . وفي عرف المصنِّفين [غلب] [(٢)] على طائفـة مـن المسـائل اعتبرت منفردة عما عداها . وفي عرف الفقهاء : مـا يتَضـمن الشرائع والأحكام ... والكتاب علم جنس لطائفة من ألفـاظ دالـة على مسائل مخصوصة من جنس واحد تحته في الغالب أبـواب دالة على الأنواع منها ، وفصول دالة على الأصناف وإما غيرها) [(٣)] .

يعدّ ذلك كله من باب تخصيص الدلالة ؛ فالكتاب في اللغة معناه عام ، ذكر الأزهري أنه مصدر كَتَب ، وأنه اسم لما كُتـب

(١) المزهر ٢/٥٩ ، وكتاب الفيروز آبادي المشار إليه اسمه كاملا : ترقيق الأسل لتصفيق العسل (كشف الظنون ١/٤٠١)

(٢) زيادة ليست في المطبوع من الكليات .

(٣) الكليات (فصل الكاف) : ٧٦٧

مجموعًا [1]. ومما يشير إلى هذا الأصل قوله تعالى حكاية عــن سليمان عليه السلام : ﴿ **اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَــيْهِمْ** ﴾ [2] . فإنه قيل له : " كتاب " باعتبار جمع حروفــه وكلماتـــه ، وضـــم بعضها إلى بعض ، وإن كان في حقيقته رسالة .

ولم يبق هذا العموم للكتاب على حالة ، بل تطورت دلالته – كما ذكر الكفوي – في العرف الخاص بالمشتغلين ببعض العلوم ، وفي العرف العام أيضا ، أي بعيدًا عن هذه العلوم . فـــالعرف العام يخصه بصُحُف بين دفّتين بها كثير من الكلمات أو المســـائل أيًّا كانت .

وإذا قيل : " الكتاب " معرفًا بالألف واللام – انصرف في عرف النحويين إلى كتاب سيبويه (ت ١٨٠هـــ) . وذلك قـــديم ؛ قال السيرافي (ت ٣٦٨ هـــ) .

(كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله عَلَمًا عند النحويين ، فكان يقال بالبصرة : قرأ فلان الكتاب ، فيعلم أنه كتاب ســـيبويه وقرأ نصف الكتاب ، ولا يشك أنه كتاب سيبويه) [3].

وعن دلالته على " القرآن الكريم " في عرف علماء أصول الفقه ، يقول الإمام الشافعي (ت٢٠٤ هـــ) مبينًا مصادر التشريع

---

(١) انظر : التهذيب (كتب) ١٥١/١٠ واللسان (كتب) ٣٧٠/٥ .

(٢) سورة النمل من الآية : ٢٨

(٣) أخبار النحويين البصريين ٦٥

الديني أو الإسلامي : (ليس لأحد أبدًا أن يقول في شيئ : حـــلَّ ولا حَرُمَ ؛ إلا من جهة العِلْم . وجهة العِلْم الخَبَر في الكتـــاب أو السنة ، أو الإجمـــاع أو القيـــاس) [(١)]. ونـــص الشـــيخ زكريـــا الأنصاري (ت ٩٢٥هـــ وقيل ٩٣٦هـــ) على أن هذا دلالته في عرف الأصوليين[(٢)].

وقد أخذ الأصوليون هذا المصطلح مما شاع فـــي صـــدر الإسلام ، في التنزيل العزيز والسنة النبوية ، حيث شاع استعمال " الكتاب " فيهما للدلالة على " القرآن الكريم " ؛ كما فـــي قولـــه تعالى : ﴿**ذَلكَ الكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه**﴾ [(٣)]. وقوله عز وجل : ﴿**هُـــوَ الَّذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ منْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَـــرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [(٤)]

وقول البني صلى الله عليه وسلم : " **إن الله يرفـــع بهـــذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين** " [(٥)]. وقوله – صلى الله عليـــه

---

(١) الرسالة ١٢٦ فقرة : ١٢٠

(٢) انظر : غاية الوصول شرح لب الأصول ٣٣

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢

(٤) سورة آل عمران من الآية : ٧

(٥) رواه مسلم عن عمر – رضي الله عنه – في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه (صحيح مسلم بشرح النووي ٩٨/٦) وابن ماجه في ســـننه ٧٩/١ في المقدمة باب (١٦) فضل من تعلم القرآن وعلّمه ، حديث : ٢١٨

وسلم كذلك : " كتابُ الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعــدكم ، وحُكْم ما بينكم".[1]

وقد عرَّج الكفوي على دلالته في عرف المصنِّفين ، جمع مصنِّف ، وهو المؤلِّف الذي يقوم بجمع المسائل وترتيبها وتهذيبها ، في أي علم من العلوم .

كما عرَّج على معناه في عرف الفقهاء ، وهم المشتغلون باستنباط الأحكام الشرعية العملية مــن أدلتهــا التفصــيلية[2] . فالكتاب عندهم هو : مجموعة مسائل منطوية على أحكام شرعية خاصة بموضوع معين . كقولهم : كتاب البيوع ، كتاب الشُّفعَة ، كتاب النذور ، كتاب الكفارات .. الخ .

ويطلقونه أيضا على ما يندرج تحته موضــوعات عديــدة بينها رابط ؛ فهو علم جنس .كقولهم : كتاب الحدود ؛ فإنه يتضمن كل الحدود التي بيَّنها الشارع ، كحد الشرقة ، وحد الزنا ، وحــد القذف ، وحد القتل . وكتاب المعاملات ؛ فإنه يشــتمل علــى : البيوع والرَّهْن والسَّلم والرِّبا .. الخ .

وقد ذكر التهانوي ما غلب عليه لفظ " الكتاب " في عرف الشرع وأهل العربية واصطلاح المصنِّفين [3] وأضاف أنه (في

(١) رواه الدارمي في سننه ٥٢٦/٢ – ٥٢٧ عن علي بن أبي طالب – كــرم الله وجهــه – في كتاب فضائل القرآن – باب (١) فضل من قرأ القرآن ، حديث ٣٣٣١ والترمذي في ســننه ١٥٨/٥ – ١٥٩ في كتاب : فضائل القرآن – باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن ، حديث : ٢٩٠٦ .

(٢) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون (الفقه) ١٢٨٢/٢

(٣) انظر : السابق (الكتاب) ١٣٥٩/٢

اصطلاح الصوفية يطلق على الوجود المطلق الذي لا عدم فيه) [(١)].

وإذا أضيف هذا اللفظ فقيل : (أهل الكتاب) فإنه يــراد بذلك اليهود والنصارى .

اللَّفْـــظ

ذكر الكفوي أن ("اللفظ " هو في أصــل اللغــة مصــدر بمعنى الرَّمْي ، وهو بمعنى المفعول ، فيتناول ما لم يكن صــوتًا وحرفًا ، وما هو حرف واحد وأكثــر ، مهمــلاً أو مســتعملاً ، صادرًا من الفم أو لا ، لكن خص في عرف اللغة بما صدر مــن الفم من الصوت المعتمد على المخرج حرفًا واحــدًا أو أكثــر ، مهملاً أو مستعملاً ، فلا يقال : لفظ الله ، بل يقال : كلمــة الله) [(٢)].

فهذا تخصيص دلالي ؛ لأن معنى " اللفظ " في أصل اللغة عام ، كما ذكر الكفوي ، ومما يؤكد هذا قول اللغويين : (اللَّفْظ : أن ترمي بشيء كان في فيك ، والفعل لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظًا ، والأرض تلفظ الميت إذا لم تقبله ورمت به ، والبحر يلفظ الشيء : يرمي به إلى الساحل ، والدنيا لا فظة : ترمي بمن فيها إلى الآخرة) [(٣)].

---

(١) نفسه (الكتاب) ١٣٥٩/٢

(٢) الكليات (فصل اللام) : ٧٩٥

(٣) التهذيب (لفظ) ٣٨١/١٤ ، وانظر : المحكم ٢٣/١٠ واللسان ٥٠٩/٥ (لفظ)

(ولَفَظْت بالكلام وتَلَفَّظْتُ به ، أي تكلمت به) [(١)] ويقول أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤ هـ) : (اللفظ : ما خرج من الفم ولُفِظ به كلامًا كان أو غيره) [(٢)].

ولهذا قُيِّد الفعل " **يلفظ** " بالقول في الآية الكريمة : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾[(٣)]؛ منعًا من دخول غير المراد هنا – وهو القول – كالرِّيق ؛ فإنه يلفظ كذلك من الفم .

ويشير إلى تخصيص دلالته قول بعض العلماء ، كالفاكهي (ت٩٧٢هـ): (اللفظ : أي الصوت المتضمن بعض الحروف الهجائية تحقيقًا أو تقديرًا ، دلَّ على معنى أم لا ، وهو في الأصل مصدر بمعنى الرمى ، ثم خص بالرمى من الفم ، ثم أطلق عليه من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول) [(٤)].

وكالتهانوى حيث قال : (اللفظ ، بالفتح وسكون الفاء في اللغة : الرمى ... ثم نقل في عرف النحاة ابتداءً أو بعد جعله بمعنى الملْفُوظ كالخَلْق بمعنى المَخْلُوق – إلى ما يتلفظ به الإنسان

(١) الصحاح (لفظ) ١١٧٩/٣

(٢) الفرق بين الضاد والظاء للداني ١١١

(٣) سورة ق : ١٨

(٤) الفواكه الجنية على متممة الأجرومية ٣

والفاكهي هو جمال الدين عبد الله بن أحمد بن عبد الله الفاكهي المكي ، عالم بالعربية ، ومن فقهاء الشافعية ، مولده ووفاته بمكة ، أقام بمصر مدة ، من كتبه كذلك : مجيب الندا إلى شرح قطر الندى ، والحدود النحوية ، توفي سنة ٩٧٢ هـ (الأعلام ٦٩/٤)

حقيقة كان أو حكمًا ، مهملا كان أو موضوعًا ، مفــردًا كــان أو مركبًا) (١).

ولا يفسر بغير هذا في كتب المصــطلحات ، كمــا فــي التعريفات للجرجاني: (اللفظ : ما يتلفظ به الإنسان أو من فــي حكمه ، مهملاً كان أو مستعملاً) (٢).

وهذا التخصيص الدلالي شائع ، يوجــد لــدى النحــويين وغيرهم ، وهو ما عبر عنه الكفوي بقوله: (لكن خص في عرف اللغة ..) أي في العرف العام ، فلا ينصرف الذهن إلى غيــره عند إطلاقه .

ويبدو أن كثرة استعمال اللفظ في هذا المعنى ، وراء هذا التخصيص ، فإن لَفْظ الصوت من الفم ، بمعنى رميــه ، ســلوك أكثر في واقع الحياة الإنسانية ، من لفظ الأرض أو البحر أو الدنيا لما فيها.

وقد يفيد في هذا قول ابن فارس : (اللام والفاء والظــاء كلمة صحيحة تدل على طرح الشيء ، وغالب ذلك أن يكون من الفم . تقول لَفَظ بالكلام يَلْفِظ لَفْظًا ولَفَظْتُ الشيء من فمي) (٣).

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون (اللفظ) ٢/١٤١٠-١٤١١

(٢) التعريفات (اللفظ) ٢٤٧

(٣) المقاييس (لفظ) ٥/٢٥٩

ولا يفهم من " اللفظ " في الاستعمال اللغوي المعاصر غير معناه المتطور المشار إليه .

المـــتاع

ذكر الكفوي أن (المتاع : ما يفرش في المنازل ويزيّن به ... وقال ابن الأثير : المتاع لغة: كل ما ينتفع به مـــن عُـــروض الدنيا قليلها وكثيرها [(١)] ، فيكون ما ســـوى الحجـــرين متاعًـــا . وعرفًا : كل ما يلبسه الناس ويُبْسَط) [(٢)].

فهذا تخصيص دلالي ؛ حيث خُصَّ المتاع في هذا العرف ببعض ما يدل عليه في اللغة . ويدل هذا التخصيص على جانـــب من حياة أصحاب ذلك العرف ؛ فقد كـــان اللِّبـــاس أو الثيـــاب ، والبُسُط أو أثاث البيت أكثر وأعظم ما ينتفعون به .

وقد ذكر التهانوي أيضًا هذا التطور ، بإيراد هذا المعنـــى اللغوي للمتاع عن ابن الأثير أيضا ، والمعنى العرفي عن كتاب : جامع الرموز [(٣)].

ويقول الزجاج عن المعنى اللغوي – مؤكدًا ما تقـــدم – (المتاع في اللغة : كل ما انتفع به ، فهـــو متـــاع) [(٤)]. ويقـــول

---

(١) قول ابن الأثير في النهاية (متع) ٤ / ٢٩٣

(٢) الكليات (فصل الألف والثاء) ٣٩-٤٠

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون (المتاع) ١٣٤٥/٢

(٤) معاني القرآن ٣٨/٢

الأزهري أيضا : (فأما المتاع في الأصل : فكل شيء يُنتفع بــه ويُتبلّع به ويُتَزَوَّدُ والفناء يأتي عليه في الدنيا) [1].

وفي المُغْرب والمصباح كذلك : (المتاع في اللغة : كــل ما انتفع به ... فالطعام متاع ، والبَزُّ متاع ، وأثاث البيت متاع) [2].

ويدل استعمال القرآن الكريم له على أنه بهذا المعنى فــي اللغة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِــالْمَعْرُوفِ**﴾ [3] أي (نفقة) [4] ، وقوله : ﴿ **وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَــاعَهُمْ** ﴾ [5] يعنــي (أوعية الطعام) [6] ، وقوله : ﴿ **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَــذْكِرَةً وَمَتَاعــاً لِّلْمُقْوِينَ** ﴾ [7] أي (منفعة) [8] ، فقد استعمل فيما ينتفع به من غير اللِّباس والبُسُط أيضًا .

---

(١) التهذيب (متع) ٢ / ٢٩١ وعنه في اللسان (متع) ١٠/٦ وعن الأزهري أيضا في التاج (متع) ١٨٢/٢٢ إلى قوله (ويُتَزَوَّدُ)

(٢) المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي (متع) ٢٣٥ ، وانظر : المصباح المــنير (متــع) ٢ / ٥٦٢

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٤١

(٤) مفاتيح الغيب ٤٧٢/٣

(٥) سورة يوسف من الآية : ٦٥

(٦) المغرب للمطرزي (متع) ٢٣٥ ، وانظر : مفاتيح الغيب ٩٨/٩ وروح المعاني ١٢/٧

(٧) سورة الواقعة : ٧٣

(٨) الكشاف ٤٦٧/٤ وأنوار التنــزيل للبيضاوي ٤٦٣/٢

وفي الحديث كذلك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " **إن الدنيا كلَّها متاعٌ وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة** " (١).

وهذه الكلمة تعني في اللهجة المصرية الآن : " المِلْك " – وهو ينتفع به – وتنطق بإبدال الميم باءً (نقول في دارجتنا :هذا الكتاب بتاع فلان : أي مِلْك فلان ، وتسند إليها بقية الضمائر ، فنقول بِتَاعِي وبِتَاعَك : أي ملكي ومِلْكُكَ ... الخ ، والأصل فيها : متاع ، وأبدلتَ الميم باءً) (٢).

ويتبين من خلال ما سبق في هذا المبحث أن تخصيص الدلالة ، أو تضييق المعنى ، كان محل عناية ملحوظة من أبي البقاء الكفوي ، وأنه وقف على دور كثرة الاستعمال في تغير معنى اللفظ ، وأن اختلاف الظروف البيئية له أثره في هذا أيضًا ، وأن الكلمة التي تشير إلى أنواع ، أو أصناف كثيرة ، يصعب أن تحتفظ بمدلولها العام على مر العصور .

---

(١) رواه النسائي في سننه ٩٦/٦ عن عمرو بن العاص ، في كتاب النكاح باب كراهية تزويج الزناة .

(٢) معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية د/ عبد المنعم سيد عبد العال (باب الباء) ١١٨ .

المبحث الثاني

تعميم الدلالة

وذلك بأن يصير معنى اللفظ عامًا بعد أن كان في الأصل خاصًا .[1] وهذا المصطلح قديم في التراث العربي ، كما سيأتي . وفي الكليات لأبي البقاء الكفوي بعض الأمثلة لهذا الشكل الدلالي ، وهي :

أَجْلُ

قال الكفوي : (الأَجْلُ ، في الأصل مصدر أَجَلَ شَرًّا : إذا جناه ، استعمل في تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تعليل) [2].

فهذا تعميم للدلالة ؛ إذ صار اللفظ يستعمل في كل تعليل في الشر والخير . وقد أشار إلى ذلك الأزهري فقال : (قلت : والأصل في قولهم فعلتُه من أَجْلِك ، من قولهم : أَجَلَ عليه أجْلاً ، أي جَنَى وجَرَّ) [3]. قال تعالى: ﴿ **مِنْ أَجلِ ذَلكَ كَتَبْنَا على بَنِي إِسْرَائِيل** ﴾[4]. قال أبو عبيدة : (

(١) انظر : لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، د/ عبد العزيز مطر ١٩٦

(٢) الكليات (فصل الألف والجيم) ٥٠

(٣) تهذيب اللغة (أجل) ١١/١٩٤ وعنه في اللسان (أجل) ١/٤٤

(٤) سورة المائدة من الآية : ٣٢

أي من جناية ذلك وجرِّ ذلك ، وهي مصدر أَجَلْتُ ذلك عليه) (١).

ونص البيضاوي والألوسي في رحاب هذه الآية الكريمة على ما أصاب الأَجْل من اتساع مدلوله (٢).

وهذا التطور الدلالي قديم ؛ ومنه قول عَيْلاَنَ بن شُجاعٍ النَّهْشَلِيِّ – وهو عربي فصيح كما يقول عنه صاحب بدائع الفوائد _ (٣):

أُحِبُّ أَبَا مَرْوَانَ مِنْ أَجْلِ تَمْرِهِ وَأَعْلَمُ أَنَّ الرِّفْقَ بِالمَرْءِ أَرْفَقُ(٤)

فقد استعمله الشاعر في تعليل حُبِّ أبي مَرْوان ، والحب خير وشيء حسن.

ومنه حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – : " **ليس أَحَدٌ أَحَبَّ إليه المدْحُ من الله عز وجل من أَجْل ذلك مدح نفسَهُ ،**

---

(١) مجاز القرآن ١٦٣/١ ، وانظر : تفسير الطبري ١٢٩/١٦ ومعاني القرآن للزجاج ١٦٨/٢ وتفسير القرطبي ١٤٥/٦ والبحر المحيط ٢٣٧/٤

(٢) أنوار التنزيل ٢٦٤/١ وروح المعاني ٢٨٧/٣

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم ٣١٨/٢

(٤) البيت من الطويل في حواشي ابن بري (حبب) ٥٧/١ واللسان (حبب) ٦/٢ وبدائع الفوائد ٣١٨/٢ والتاج (حبب) ٢١٤/٢ ، وبلا عزو في الصحاح (حبب) ١٠٥/١ والمحكم (حبب) ٥٤٢/٢ والمخصص سفر ١٢ حـ ٤٢٧/٣ باب النفع والضر . مع اختلاف في بعض ألفاظ الشطر الثاني في بعض هذه المصادر ، وعَيْلاَن في بعضها : غيلان ، بالغين .

وليس أحدٌ أَغْيَرَ من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ، وليس أَحدٌ أحبَّ إليه العُذْرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل " (١).

وهذه الدلالة باقية في العربية المعاصرة ؛ فالأَجْل يستعمل فيها في تعليل أي فعل . يقال مثلا : زُرْنا فلانًا من أَجْل الاطمئنان عليه . وعُوقب فلان بكذا لأَجْل جُرْمه وخداعه .

الحِصَان

قال الكفوي في حديثه عن تعميم دلالة بعض الألفاظ : (ومنه الحِصَان للفرس الذكَر خلاف الحِجْر ، وهي الأنثى منه . والأصل أن الفحل الكريم الذي يُضَنُّ بمائه لا يُنْزَى إلا على فرس كريمة، كأنه حُصِنِ من الانزاء ، ثم كثُر استعماله حتى أطلق على الفحل الكريم وغيره ، وأشباه ذلك) (٢).

فهذا توسيع للمعنى ؛ بسبب كثرة الاستعمال ، إذ كان لفظ الحصان موضوعًا في أصل اللغة للفحل من الخيل الكريم المضْنُونِ بمائِه ، ثم صار يتناول كل ذكر منها ، وإن لم يكن كذلك .

---

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود في كتاب التوبة – باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (صحيح مسلم بشرح النووي ٧٨/١٧)

(٢) الكليات (فصل التاء) ٣١٦

وقد نص بعض اللغويين علي هذا التطور ؛ كـــالجوهري في قوله : (فَرَسٌ حِصَانٌ بالكسر ، بَيِّن التَّحْصِين والتَّحُّصـــن . ويقال إنه سمى حِصانا لأنه ضُنَّ بمائه فلم يُنْزَ إلا على كريمـــةٍ . ثم كثر ذلك حتى سَمَّوْا كل ذكر من الخيل حِصـــانا) [١]. كمـــا ذكره ابن منظور والفيومي والزبيدي [٢] .

وفي العربية المعاصرة يطلق كذلك لفظ الحصان على كل ذكر من الخيل . وقد حُدَّ بذلك في المعجم الوسيط ، جاء فيـــه : (الحِصان : الذكر من الخيل) [٣].

ويقول رينهارت دوزي أيضا : (حِصَانٌ ... والعامة تقول حُصَان : الذكر من الخيل) [٤].

الخَبَــر

ذكر الكفوي أن (الخَبَر : لغة بمعنى العلم : والخبير فـــي أسماء الله تعالى بمعنى العليم ؛ ولهذا سمى الامتحان الموصَّل به إلى العلم اختبارًا .

---

(١) الصحاح (حصن) ٢١٠١/٥

(٢) اللسان (حصن) ١٠١/٢ و المصباح (حصن) ١٣٩/١ والتاج (حصـــن) ٤٣٧/٣٤ (وقد بيَّن الزبيدي في التاج أنه نقله عن الجوهري).

(٣) المعجم الوسيط (حصن) ١٨٦/١

(٤) تكملة المعاجم العربية (حصن) ٢٢٣/٣

بمقتضى معناه اللغوي أن يقع على الصدق خاصة ليحصل به معناه وهو العلم . إلا أنه كثُر في العرف للكلام الدال على وجود المخبر به صادقا كان أو كاذبًا ، عالمًا كان أو لم يكن ؛ ولهذا يقال: أخبرني فلان كاذبًا . والحقيقة العرفية قاضية على اللغوية . ويُؤيد هذا العرف بقوله تعالى : ﴿ **إِن جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ﴾ (١) ، إذ لو كان للصدق خاصة لم يكن للتبيّن معنى ، والنبأ والخبر واحد)(٢).

فالخبر اتسع معناه في العرف ، ويؤكِد أنه وضع في اللغة للعِلْم ، دورانُ مادته حول هذا المعنى (٣) . (ولهذه المادة يرجع الخَبَر ؛ لأنه الشيء المُعْلَم به) (٤) . ويفيد الرازي أيضا أن (الإخبار في أصل اللغة لإفادة الخبر والعلم) (٥).

وقد رأينا الكفوي يستفيد في الكشف عن معنى الخبر من الربط بين مشتقات مادته ، وهو طريق مفيد في الوصول إلى هذا

---

(١) سورة الحجرات من الآية : ٦

(٢) الكليات (فصل الخاء) ٤١٤

(٣) انظر : المقاييس (خبر) ٢٣٩/٢ ويمكن رد الأصل الآخر الذي ذكره ابن فارس لهذه المادة ، وهو اللِّين والرخاوة ، ومنه الخَبْراء ، وهي الأرض اللينة –إلى الأصل الأول وهو العِلْم ؛ على أساس أن هذه الأرض اللينة ، يسهل تقليبها والعلم ببواطنها أكثر من غيرها .

(٤) البحر المحيط ٥١٣/٢ (في تفسير سورة البقرة ، الآية : ٢٣٤)

(٥) المحصول في علم الأصول ٦٤٧/٤

ثم وجدناه ينطلق مما كان يقتضيه هذا المعنى اللغــوي ، من وقوع الخبر على الصدق خاصة ، إلى الواقع الــذي حــدث بالفعل لدلالته في العرف ، وتوسيع نطاقها .

ولعله لم يقيد العرف بالعام أو بالخــاص ، لشــيوع هــذه الدلالة للخبر فيهما جميعًا . وذكر استعمالاً يجري علــى ألســنة الناس يفيد في هذا ، وهو : أخبرني فــلان كاذبًــا . وإذا كانــت العرب تقول في أمثالها : (عِنْدَ جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقينُ) (١) فإن هذا يشير إلى قدم هذا التطور ؛ إذ لو كان الخبر للصدق خاصة لــم يكن لكلمة اليقين معنى .

واصطلح على هذا أيضا بعض أرباب العلوم ، كعلماء الأصول ، والبيان ، والمنطق والكلام وغيرهم (٢) . يقول الشيرازي (ت ٤٧٦ هـــ) في اللمع في أصول الفقه : (الخبر : هو الذي لا يخلو من أن يكون صدقًا أو كاذبا) (٣).

ويقول الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الروايــة : (الخبر : هو ما يصح أن يدخله الصدق أو الكذب) (٤).

---

(١) المستقصي في أمثال العرب ١٧٠/٢ ومجمع الأمثال ٣/٢ والمزهر ٤٩٨/١

(٢) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون (الخبر) ٧٣٥/١

(٣) اللمع للشيرازي ٣٩

(٤) الكفاية في علم الرواية ١٦ ، وانظر : التعريفات للجرجاني (الخبر) ١٢٩

وجميل أن يوجد لدى الكفوي شـــيء ممـــا يســـمى عنـــد المحدثين بنظرية العلاقات الدلالية Semantic relations [١] ، أو العلاقات داخل الحقل المعجمى . وتقوم هذه النظريـــة علـــى أساس أن معنى الكلمة هو محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في نفس الحقل المعجمى [٢].

وذلك حين أفاد الكفوي من علاقة الترادف بـــين الخبـــر والنبأ [٣] في الوقوف على معنى الخبر، وأنه صار يدل على مـــا يحتمل الصدق أو الكذب ، وليس الصدق فقط ؛ بدليل اشتمال النبأ عليه !

---

(١) انظر : مدخل إلى علم اللغة د/ محمود فهمي حجازي ١٤٥ وعلم اللغة د/ عاطف مـــدكور ٢٤٥

(٢) انظر : علم الدلالة د/ أحمد مختار عمر ٩٨ وعلم اللغة د/ عاطف مدكور ٢٤٦ وقد حصـــر المحدثون هذه العلاقات الدلالية بين الكلمات في :

أ. علاقة الترادف . ب. علاقة الاشتراك . ج. علاقة التضاد .

د. علاقة الجزء بالكل ، كعلاقة اليد بالجسم .

هـــ. علاقة الاشتمال أو التضمن مثل " فرس " فإنه نوع من الحيوان ، وعلى هذا فمعنى فرس يتضمن معنى حيوان .

و. علاقة التنافر ، ويدخل تحتها ما يسمى بعلاقة الرتبة ، مثل : ملازم – رائد – مقدم – عقيد – عميد – لواء ، فهذه الألفاظ متنافرة ؛ لأن قولنا محمد رائد يعني أنه ليس مقدّمًا ولا عقيـــدًا .. الخ . انظر : علم الدلالة د/ أحمد مختار عمر ٩٨ – ١٠٦

(٣) الترادف بمفهومه العام ؛ أي اشتراكهما في قدر كبير من المعنى ، وليس الترادف التام .

والكفوي يُصْدِرُ في هذا المثال عن رُوح القاضي الفقيه ، الذي يجنح إلى سوق الأدلة والبراهين ، ويلجأ إلى القياس ؛ فهو قاضٍ وفقيه حنفيٌّ.

أقمت بين ظهرانَيْهِم

يقول الكفوي في إطار حديثه عن تعميم دلالة بعض الألفاظ : (ومن هذا القبيل : قولهم : أقمت بين ظَهْرَانَيْهِم ، أي: بين ظَهْرٍ في وجهي وظَهْرٍ في ظَهْري ، ثم استعمل في مطلق الإقامة)[1].

وذكر بعض العلماء هذا التعميم ، وبينوا أنه حدث بسبب كثرة الاستعمال . يقول الزمخشري : (وأما ظَهْرَانَيْهِمْ ، فقد زيدت فيه الألف والنون على ظَهْر عند النِّسْبة للتأكيد ... وكأن معنى التثنية أن ظَهْرًا منهم قُدّامه وآخر وراءه ، فهو مكْنُوفٌ من جانِبيْه ، وهذا أصله ثم كثر حتى استعمل في الإقامة بين القوم مطلقًا وإن لم يكن مكنوفا) [2].

وذلك ما ذكره أيضا ابن الأثير [3] ، والفيومي الذي نبه إلى فائدة المجئ بكلمة ظَهْر في هذا التركيب ونحوه ، فذكر أنه يقال : (هو نازل بين ظَهْرَانَيْهِمْ ... وبين ظَهْرَيْهِم وبين أَظْهُرِهم

(١) الكليات (فصل التاء) ٣١٦

(٢) الفائق في غريب الحديث ٤١/١

(٣) النهاية (ظهر) ١٦٦/٣ وعنه في اللسان (ظهر) ٢٣٣/٤ والتاج (ظهر) ٤٨٨/١٢

، كلها بمعنى بينهم ، وفائدة إدخاله في الكلام أن إقامته بينهم على سبيل الاستظهار بهم والاستناد إليهم ، وكأن المعنى أن ظَهْرًا منهم قُدّامه وظَهْرًا وراءه ، فكأنه مكنوف من جانبيه . هذا أصله ثم كثر حتى استعمل في الإقامة بين القوم وإن كان غير مكنوف بينهم) [1].

وعلى هذا حديثه – صلى الله عليه وسلم – : " **ما مِنْ رَجُل يجاور قومًا فيعمل بين ظَهْرَانَيْهِم بالمعاصي ، ولا يأخذون على يديه ، إلا أوْشك أن يعمَّهم الله منه بعقاب** " [2].

وهذا معروف أيضا في العربية المعاصرة ، ولكن الأكثر أن يقال : أقام أو نَزَل أو تَرَبَّى بينهم.

تَعَالَ

قال الكفوي : (تعالَ ، بفتح اللام : أمرٌ ، أي جِئْ ، وأصله أن يقوله مَنْ في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطي ، ثم كثر حتى استوى استعماله في الأمكنة عالية كانت أو سافلة ؛ فيكون من الخاص الذي جعل عامًا ، واستعمل في موضوع العام) [3].

---

(١) المصباح المنير (ظهر) ٣٨٧/٢

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣٣٢/٢ عن عبيد الله بن جرير عن أبيه ، حديث رقم : ٢٣٨٤

(٣) الكليات (فصل التاء) ٣١٦

فالكفوي – كما نــرى – تتبع المسار التــاريخي لدلالــة الكلمة ، وسمَّي شكل التطور الدلالي هنا ، ذلــك الــذي يســميه المحدثون بتعميم الدلالة أو توسيع المعنى ، وهو مسبوق إلى هذه المحاولة ، كما سيأتي .

وهذا التطور الدلالي قديم في اللغة ، قال الأزهــري : (وتقول العرب في النداء للرجل تَعَالَــهْ ، وللاثنــين : تَعَالَيَــا ، وللرجال : تَعَالَوْا ، وللمرأة : تَعَالَيْ ، وللنســاء : تَعَــالَيْن . ولا يبالون إن كان المدعوّ في مكان أعلى من مكان الداعي ، أو فــي مكان دونه) [١].

وذكر هذا التطور كثير من العلماء [٢]، يقول ابن فارس : (فأما قولهم : تَعَالَ ، فهو من العُلوِّ، كأنه قال اصعد إليَّ ، ثم كثر حتى قاله الذي بالحضيض لمن هو في علوه) [٣].

ويقول الزمخشري أيضا في تفسير قوله تعــالى : ﴿ **قُــل تَعَالَوْا أَتلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** ﴾ [٤] : (تَعَالَ ، من الخاص الذي

---

(١) التهذيب (علي) ١٨٩/٣ وعنه في اللسان (علا) ٤٢١/٤ وانظر التاج (علو) ٨٩/٣٩

(٢) انظر : الصحاح (علا) ٢٤٣٧/٦ والمفردات (علا) ٣٨٧ وتفســير النســفي ٣٩/٢ وتفسير البيضاوي ٣٢٦/١ وتفسير الخازن ١٩٨/٢ وتفسير النيسابوري ٦٤/٨ والمصــباح المنير (علو) ٤٢٨/٢ (وعنه في التاج " علو " ٨٩/٣٩) وروح المعاني ٢٩٧/٤

(٣) المقاييس (علو) ١١٨/٤

(٤) سورة الأنعام من الآية : ١٥١

صار عاما . وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمـــن هـــو أسفل منه ، ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ) [1].

وقد سمى البيضاوي (المتوفى سنة ٦٨٥ وقيل ٦٩١هـــ) هذا التطور الدلالي للكلمة " تعميمًا " سابقا بهـــذا علمـــاء اللغـــة المحدثين من الأوروبيين وغيرهم ؛ إذ ذكر في هـــذه الآيـــة أن " تَعَالَوْا " (أمر من التعالي ، وأصله أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفل ، فاتسع فيه بالتعميم) [2].

ويوجد هذا المصطلح عند الألوسي أيضا (المتوفى ســـنة ١٣٤٠هــ) ، ويظهر أنه أخذه عن البيضاوي ، لاتفاق نصه مع نص البيضاوي تمامًا [3].

ولعل في ذلك إشارة إلى أن التراث العربي في حاجة إلى مزيد من العناية والقراءة ، لجمع ما تفرق فيه مما يتصل بذلك ، وتكوين نظرية عربية في دراسة التطور الدلالي .

هذا ، وتستعمل كلمة " تَعَالَ" في العربية المعاصرة كذلك بهذا التعميم .

---

(١) الكشاف ٧٨/٢ وعنه في مفاتيح الغيب ٦٢٧/٦

(٢) أنوار التنـــزيل ٣٢٦/١

(٣) روح المعاني ٢٩٧/٤

الفَذْلَكَة

قال الكفوي : (الفَذْلَكَة : هو مأخوذ من قول الحُسَّـاب : فَلذَلِكَ كان كَذا ، فذلِك إشارة إلى حاصل الحِساب ونتيجتـه ، ثـم أطلق لفظ الفذلكة لكل ما هو نتيجة متفرعة على ما سبق ، حسابًا كان أو غيره ، ونظير هذا الأخذ أخـذهم البسـملة والحمدلـة ، ونظائرهما من الكلمات المركبة المعلومة ، وهذا يسمى بالنحت) [١].

فهذا تعميم لدلالة الفذلكة ؛ حيث صارت تدل على حاصل ما تقدم أو مجمله ونتيجته أيًّا كان هو ، بعد أن كانت تـدل فـي الأصل على حاصل الحساب ونتيجته خاصة . وذلك كأن يقـول القائل : أعطيته عشرة جنيهات بالأمس وسبعة اليوم فذلك سـبعة عشر جنيهًا .

ويشير الصغاني (ت ٦٥٠ هـ) إلى المعنـى الأصـلي فيقول : (قولهم : فَذْلَكَ حِسَابه ، أي : أنهاه وفَرَغ منـه ، كلمـة مخترعة ، أُخذت من قول الحاسِب ، إذا أَجْمل حسابه : فذَلِكَ كذا وكذا عددًا ، أو كذا وكذا قفيزًا) [٢]. وكذا في القاموس [٣].

---

(١) الكليات (فصل الفاء) ٦٩٦ – ٦٩٧

(٢) التكملة والذيل والصلة (فذلك) ٥/٢٢٧ – ٢٢٨

(٣) القاموس المحيط (فذلك) ٣/٣٠٥

كما يقول الشهاب الخفاجي : (الفَذْلَكَة ... معناها : إجمال عدد فصّله قبله ، قال المتنبي:

نُسِقُوا لنا نَسْقَ الحِسَابِ مُقَدَّمًا　　وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُـؤَخَّرًا[1]

قال الواحدي : الفذالك جمع فَذْلكة ، وهي جملة الحُسَّاب لقولهم فيها : فذلِكَ كذا [2] ، انتهى . وهذه اللفظة منحوتة مولدة) [3] . وعرض الزبيدي لذلك في التاج [4] .

ويشير إلى توسيع دلالتها استعمال العلماء لها أيضا في غير حاصل الحساب ومجمله ، ولذلك يقال : (الفذلكة هي في كلام العلماء يراد بها إجمال ما فُصِّل أولاً) [5]. ويقول صاحب محيط المحيط : (فَذْلَكَ حسابه فَذْلَكة : أنهاه وفرغ منه ، وهي مخترعة من قول الحاسب ، إذا أجمل حسابه: فذلِك كذا وكذا إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته .

---

(١) البيت من الكامل في ديوانه بشرح العكبري ١٧١/٢ يمدح ابن العميد (ق ١٢٤ / ٤٣)

(٢) انظر : قول الواحدي في شرح العكبري لديوان المتنبي ١٧١/٢

(٣) شفاء الغليل ٢٣٤ – ٢٣٥ ، وهذا في حديثه عن كلمة الفهرست ، وقال في مادة " فذلكة " بعدها مباشرة ص : ٢٣٥ : (فَذْلَكة : لفظة مولدة سمعتها وعرفت معناها) .

(٤) انظر : تاج العروس (فذلك) ٢٩٣/٢٧ – ٢٩٤

(٥) كشاف اصطلاحات الفنون (فذلكة) ١٢٦٤/٢

والفذلكة يراد بها في كلام العلماء إجمال ما فُصِّــل أولاً ، وكل ما هو نتيجة متفرعة على ما سبق حسابًا كــان أو غيــره ، ومجمل الكلام وخلاصته)[١].

كقول المفسرين مثلاً في قوله تعالى : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ** ﴾ [٢] : (فذلكة ما سبق من الوعد والوعيد وتقرير له)[٣].

وقوله تعالى في آية الدخان: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ** ﴾ [٤] : (فذلكة للسورة ومعناها : ذكِّرهم بالكتاب المبين) [٥].

كما جاء في فتح الباري تعليقًا على هذه الجملة في ختــام الحديث الشريف : " .... **ألا فكُلُّكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** " [٦] : (وختم بما يشبه الفذلكة إشارة إلى استيفاء التفصيل) [٧] حيث إنه صلى الله عليه وسلم كان قد فصَّل أولاً أن الإمام راع ، والرجل راع ، والمرأة راعية ، والعبد راع على مال سيده .

---

(١) محيط المحيط نقلا عن محقق تكملة المعاجم العربية لدوزي (فذلك) ٢٩/٨ حاشية رقم : ٧٢ ، وانظر المعجم الوسيط (فذلك) ٧٠٣/٢

(٢) سورة الحجر ، الآيتان : ٤٩ ، ٥٠

(٣) أنوار التنــزيل للبيضاوي ٥٣١/١

(٤) سورة الدخان من الآية : ٥٨

(٥) الكشاف ٢٨٣/٤

(٦) جزء من حديث عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – في صحيح البخاري – كتــاب الأحكام باب (١) حديث : ٧١٣٨ (فتح الباري ١١٩/١٣) .

(٧) فتح الباري ١٢١/١٣

ووُصف كتاب سُلاَفَة النديم في منتخبات السـيد عبـد الله النديم ، بأنه في صورة فذلكة دينية ولغويـة ووطنيـة وسياسـية وأدبية وتاريخية [١].

وهذا كتاب في التاريخ لجرجـي زيـدان (ت ١٩١٤م) جاءت هذه الكلمة في عنوانه ، وهو : "تاريخ مصر الجديد مـن الفتح الإسلامي إلى الآن مع فذلكة في تاريخ مصر القـديم " [٢]. أي مع مجمل لهذا التاريخ القديم وخلاصة له.

واستعمل الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٩٤٨م) في كتابه : " مناهل العرفان " كلمة فذلكة كثيرًا ، ووضعها في عنوان جانبيٍّ ؛ لبيان خلاصة المبحث ونتيجته [٣].

وهذا المعنى للفذلكة المعروف للخاصة من العلماء والكتّاب ، لا يشيع في لهجات التخاطب اليومية ، فالعامة عندنا تعرف من كلمة الفذلكة معنى آخر هو : الغرور وادعاء العظمـة ، وهـذا ابتذال للدلالة .

ويتضح مما تقدم في هذا المبحـث : أن تغيـر المعنـى بتعميمه كان موضع عناية من أبي البقاء الكفوي في كتاب الكليات

(١) هذا الكتاب مجموعة من أشعار عبد الله النديم البليغة ورسائله الأدبية البديعة ، عنى بجمعهـا شقيقه عبد الفتاح وصديقه محمود أفندي واصف . انظر هذا وما وصـف بـه الكتـاب في : معجم المطبوعات العربية والمعربة ١٨٥٠/٢ – ١٨٥١

(٢) معجم المطبوعات العربية ٩٨٦/١

(٣) انظر : مناهل العرفان ١٨٣/١ ، ٣٢٤ ، ١٢٤/٢

إلى حد ما ، وأنه كان على وعي بقوة التطور الـدلالي ، ونفـوذ سلطانه ، بحيث يمكن أن تقضي الدلالة العرفية الجديـدة علـى الدلالة اللغوية الأصلية ، وذلك أيضا مما تنبه إليه السابقون كذلك كالكاساني المتوفى سنة ٥٨٧ هـ [(١)].

كما أنه عرف بعض ما يسمى لـدى المحـدثين بنظريـة العلاقات الدلالية Semantic Relation أو العلاقات داخل الحقل المعجمى .

كما أن مصطلح تعميم الدلالة ، الشـائع بـين اللغـويين المحدثين ، له أصول تاريخية قديمة عند العرب .

وأن ألفاظ هذا الشكل الدلالي جاءت في الكليات أقل مـن ألفاظ الشكل الأول ، وهو تخصيص الدلالـة . وذلـك انعكـاس للنشاط السائد في حياة اللغة . كما يلاحظ علم اللغـة الحـديث ، الذي يقرر بأن (إدراك الدلالة الخاصة أو الشبيهة بالخاصة أيسر من إدراك الدلالة الكلية ، التي يقل التعامل بها في الحياة العامة ،

---

(١) كما في قوله : (الإيجاب والقبول قد يكون بصيغة الماضي وقد يكون بصيغة الحـال . أمـا بصيغة الماضي فهي أن يقول البائع : بعت ويقول المشتري: اشتريت . فيتم الركن ، لأن هـذه الصيغة وإن كانت للماضي وضعًا ، لكنها جعلت إيجابًا للحال في عرف أهل اللغة والشـرع ، والعرف قاض على الوضع) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ١٣٣/٥

والكاساني أو الكاشاني – بالسين والشين – هو علاء الدين أبو بكر بن مسـعود بن أحمد ، فقيه حنفي ، من أهل حلب ، من كتبه : بدائع الصنائع في ترتيـب الشـرائع ، والسلطان المبين في أصول الدين ، توفى بحلب سنة ٥٨٧هـ (الأعلام ٧٠/٢) .

وبين جمهور الناس ، فالفلاسفة وأصحاب العقول الكبيـــرة هـــم وحدهم الشغوفون بتلك الألفاظ الكلية في تفكيرهم وتأملاتهم) [1].

(١) دلالة الألفاظ د/ أنيس ١٥٣ ، وانظر : اللغة لفندريس ٢٥٧

المبحث الثــالث

انتقال مجال الدلالة :

وذلك بأن تستعمل الدلالة في مجال آخر ، عــن طريــق الاستعارة أو المجاز المرسل [(١)].

وقد عرف علماء العربية القدامى هذا المصطلح ، جاء في الزاهر لابن الأنباري (ت٣٢٨هـ): (الشَّعَفُ : هو الذُّعْر ، فكأن المعنى : هو مذعور خائف قلق . قال أبو عبيد : قــال إبــراهيم النَّخعيُّ[(٢)] الشَّعَفُ : شَعَفُ الدابة حين تُذْعَر . قال أبو عبيد : ثم **نقلته** العرب من الدواب إلى الناس).[(٣)] ولهذا المظهــر الــدلالي أمثلة متعددة في الكليات وهي :

البحـــر

قال الكفوي : (كل مكان واسع جامع للماء الكثيــر فهــو بَحْر ، ثم سَمَّوْا كل متوسع في شيء بحرًا) [(٤)].

(١) انظر : تقويم اللسان لابن الجوزي (دراسة المحقق الدكتور عبد العزيز مطر) ص ٥١

(٢) هو إبراهيم بن يزيد النخعي ، تابعي من اليمن ، حُمل عنه العلم وهو ابن ثمان عشر ســنة ، مات سنة ٩٦ هـ (المعارف لابن قتيبة ٤٦٣–٤٦٤) وأبو عبيد القاسم بن سلام توفى ســنة ٢٢٤ هـ بمكة ، وكان رَأْسًا في اللغة وغيرها (تذكرة الحفــاظ للــذهبي ٤١٧/٢ – ٤١٨ ترجمة رقم ٤٢٣).

(٣) الزاهر في معاني كلام الناس ٥٠٨/١ ، والنص في اللسان (شــغف) ٤٤٦/٣ والتــاج (شغف) ٢٣ / ٥١٧ دون التصريح بأسماء .

(٤) الكليات (فصل الباء) ٢٢٦

فهذا تطور بانتقال الدلالة ، عن طريق الاستعارة لعلاقة المشابهة ، وهي هنا السعة .

وذكر الراغب هذا التطور حيث قال : (أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير ... وسمَّوْا كل متوسع في شيء بحرًا ، حتى قالوا فرس بحر ، باعتبار سعة جريه . وقال عليه الصلاة والسلام في فرس ركبه : " وجَدْتُه بَحْرًا " [(١)]......)[(٢)] . فالكفوي إذن متأثر بالراغب .

ومن هذا قول أُمَيَّةَ بن الأَسْكَرِ في تشوّقه لابنه كلاب ، الذي غزا الفرس في زمن عمر بن الخطاب [(٣)] :

انعَقْ بِضَأْنِكَ في بَقْلٍ تَبَحَّرُهُ   بَيْنَ الأَباطِحِ واحْبِسْهَا بِجِلْدَانِ[(٤)]

يقال : (تَبَحَّر الراعي في رَعْيٍ كثير) [(٥)].

---

(١) جزء من حديث عن أنس – رضي الله عنه – في البخاري – كتاب الجهاد والسير ، باب (٢٤) الشجاعة في الحرب والجبن ، حديث ٢٨٢٠ (فتح الباري ٤٢/٦) .

(٢) المفردات (بحر) ٤٦

(٣) انظر : ذيل الأمالي ١٠٨ وسمط اللآلي ٥١/٣ والإصابة ٢٠٠/١-٢٠٤

(٤) البيت من البسيط ، لأمية في المقاييس (بحر) ٢٠١/١ ، وهو أمية بن الأسكر ، كما في ذيل الأمالي ١٠٨ وسمط اللآلي ٥١/٣ ، ولا شاهد في روايتهما فمكان " تَبَحَّرُه " " تُحَفِّرُهُ " ، وبلا نسبة في البحر ٣١٦/١ (في آية البقرة : ٥٠) . وجِلْدان : ثنيّة بالطائف . الجمهرة (شظم) ٨٦٨/٢ أي مكان .

(٥) المقاييس (بحر) ٢٠١/١

وذكره الزمخشري أيضا في الأساس قال : (ومن المجاز : استبحر المكان : اتسع وصار كالبحر في السعة . وتبحَّر في العلم واستبحر فيه) [1].

ومن هذا في اللسان : (فرس بحْر : كثير العَدْو ، على التشبيه بالبحر) [2]. إشارة لمسوغ انتقال المعنى . كما ذكره الفيروز آبادي ، بلفظ كالراغب كذلك [3].

البَـرَاز :

ذكر الكفوي أن (البَرَاز ، بالفتح : اسم للفضاء الواسع ، يكنى به عن قضاء الغائط ، كما يكنى عنه بالخلاء) [4].

فهذا تطور بانتقال معنى البراز من : الفضاء الواسع – وهو معناه في اللغة – إلى : قضاء الحاجة بالغائط ، عن طريق المجاز المرسل ، وهذا ما يريده الكفوي ، ولا يقصد الكناية بالمعنى البلاغي المعروف .

وهو في هذا التعبير متأثر بمن ذكر هذا التطور قبله ؛ كالخليل بن أحمد والمطرزي وابن منظور والفيومي وابن حجر [1].

(١) أساس البلاغة (بحر) ١٦

(٢) اللسان (بحر) ١٦٧/١

(٣) بصائر ذوي التمييز (بحر) ٢٢٥/٢ – ٢٢٦

(٤) الكليات (فصل الباء) : ٢٤٨

ففي اللسان مثلا : (البراز ، بالفتح اسم للفضاء الواسع ، فكَنَّوْا به عن قضاء الغائط ، كما كَنَّوْا عنه بالخلاء ؛ لأنهم كانوا يَتَبَرَّزُون في الأمكنة الخالية من الناس) (٢).

وذكر الزبيدي هذا أيضا ، وعقب بقوله : (قلت : وهو من إطلاق المحل وإرادة الحال ، كغيره من المجازات المرسلة) (٣).

وعلى هذا التطور الدلالي حديث جابر : " كان رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – لا يأتي البَرَازَ حتى يَتَغَيَّب فلا يُرَى " (٤).

وهذا المعنى معروف إلى اليوم ، وإن كان قليلاً ، فيقال : بُرَاز ، لفضلات المعدة الخارجة من الدبر . ويقال : تَبَرَّز .

على أن المعنى اللغوي القديم لم يندثر ، بل كان يستعمل أيضا ، ومنه حديث " يَعْلى : أن رسول الله – صلى الله عليه

---

(١) انظر على الترتيب : العين (برز) ٣٦٤/٧ والمغرب في ترتيب المعرب (برز) ٢٨ ، واللسان (برز) ١٩١/١ والمصباح المنير (برز) ٤٤/١ وفتح الباري ٢٩٧/١ عند الحديث ١٤٥

(٢) اللسان (برز) ١٩١/١

(٣) تاج العروس (برز) ١٩/١٥

(٤) سنن ابن ماجه ١٢١/١ كتاب الطهارة وسننها – باب (٢٢) التباعد للبراز في الفضاء ، حديث ٣٣٥

وسلم – رأى رجلاً يغتسل بالبَرَاز... [1] " ، أي (الفضاء الواسع) [2] ، فهو (يريد الموضع المنكشف بغير سُتْرة) [3].

وأما اليوم فيقول الناس عندنا : مكان واسع بعيد ، أو فضاء . بدلاً من : بَرَاز . ولكنهم يستعملون بعض مشتقات هذه الكلمة ، فيها هذا المعنى اللغوي لأمور حسية ومعنوية ، كما في هذا التعبير : بَرَز فلان ، أي (ظهر بعد خفاء) [4] . وبرزت هذه الفكرة له : انكشفت وظهرت . وقول العامة : أبْرَزَ ما معه ، أي أظهره ولم يخفه.

الثمـر

قال الكفوي: (كل ما يُستَطْعَمُ من أحمال الشجر فهو ثَمَرٌ ، ويكنى به عن المال المستفاد) [5].

فهذا انتقال للمعنى بالاستعارة ، سوغه التشابه فيما يحصل عن الثمر والمال كليهما ، من استفادة وانتفاع . وتعبيره بـ " يُكَنَّى به " من تأثره بالراغب كما سيأتي ، وليست الكناية البلاغية المعروفة .

---

(١) سنن النسائي بشرح السيوطي ١/ ٢٠٠ كتاب الغسل والتيمم – باب الاستتار عند الاغتسال

(٢) نفسه ١/ ٢٠٠

(٣) اللسان (برز) ١/ ١٩١

(٤) المعجم الوسيط (برز) ١/ ٥٠

(٥) الكليات (فصل الثاء) ٣٢٣

وهذا التطور قديم معروف من العصر الجاهلي . قال النابغة الذبياني :

مَهْلاً فِداءً لك الأَقْوامُ كلُّهُمُ وما أُثَمِّرُوا مِنْ مالٍ ومِنْ وَلَدِ(١)

وقال الحارث بن حِلِّزة:

ولقد رَأَيْتُ معاشِرًا قَدْ ثَمَّرُوا مالاً ووُلْدًا(٢)

فهو يدل على الولد أيضا ويستعار له ؛ ولذلك ورد في اللسان أن (الثمر : حمل الشجر . وأنواع المال ، والولد : ثمرة القلب ... قيل للولد ثمرة ؛ لأن الثمرة ما ينتجه الشجر ، والولد ينتجه الأب) (٣).

وقد استعمل هذا اللفظ بدلالته المتطورة في القرآن الكريم والحديث الشريف ، فاستعمل للدلالة على المال ، قال الراغب : (وعلى ذلك حمل ابن عباس ﴿ **وَكان لَهُ ثَمرٌ** ﴾) (٤).

وعن " **خَبَّاب بن الأَرَتّ قال : هاجرنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سبيل الله نبتغي وجه الله فوجب أجرُنا على الله فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا منهم**

---

(١) البيت من البسيط في ديوانه (ق ١ / ٤٢) ص ٢٦

(٢) البيت من الكامل في وحشيات أبي تمام (ق ٢٦٠/٧) ص ١٦٤وهو في ديوان الحارث بن حلزة ص ٥٩ براوية : ..... قد جَمَّعُوا مَالاً وَوُلْدًا

(٣) اللسان (ثمر) ٣٤٦/١ – ٣٤٧

(٤) المفردات (ثمر) ٩٢ ، وجزء الآية من سورة الكهف : ٣٤

مُصْعَب بن عُمير قُتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفَّن فيه إلا نَمِرَة ... ومنا من أيْنَعَتْ له ثمرته فهو يَهْدِبُهَا" [١].

قال النووي في شرح هذا الحديث : (يقال : يَنَعَ الثمرُ ، وأيْنَعَ يَنَعًا ويُنُوعا فهو يانِعٌ . وهَدَبَها يَهْدِبُها ، إذا جناها ، وهذا استعارة لما فتح الله عليهم من الدنيا) [٢].

وقد نبه على هذا التطور بعض العلماء . قال الراغب : (الثمر : اسم لكل ما يُتَطعَّمُ من أحمال الشجر ... ويكنى به عن المال المستفاد) [٣].

ويقول الزمخشري : (شجر مُثْمِر ... ومن المجاز : (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) أي مال ... وأَثْمَرَ القوم وثَمَرُوا ثُمُورًا : كثر مالهم) [٤].

وفي البصائر كذلك : (الثمر ، في الأصل : اسم لكل ما يُتَطَعَّمُ من أحمال الشجر ... ويكنى به عن المال المستفاد) [٥].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/٧ كتاب الجنائز – باب : تكفين الميت . والنَّمِرَة : بُرْدةٌ من الصوف تلبَسها الأعراب . الصحاح (نمر) ٨٣٨/٢

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/٧

(٣) المفردات (ثمر) ٩٢

(٤) أساس البلاغة (ثمر) ٤٨

(٥) بصائر ذوي التمييز (ثمر) ٣٣٩/٢

ولا يطلق على المال ثمرٌ اليوم كثيرًا ؛ لاختلاف منــاحي الحياة ، والشئون الاقتصادية ، وإن كان المال مسببًا في بعضــه عن الثمر .

الجــري :

قال الكفوي : (الجَرْي : هو المرُّ السريع ، وأصله ممر الماء) [(١)].

وعلى هذا يكون قد انتقل مجال الدلالة بالاســتعارة التــي تمليها المشابهة في السرعة بين مر المـــاء ، ومـــر الإنســـان أو الفرس مثلا .

وفي المفردات والبصائر أيضا : (الجَرْي : المر السريع ، وأصله لمر الماء ولِمَا يجرى بجرْيه) [(٢)] وذلك في التاج عــن الراغب [(٣)].

ويقول المطرزي : (جَرْى الماء معروف . ومنه : جَرَى الفرسُ وأجراه صاحبه) [(٤)].

---

(١) الكليات (فصل الجيم) ٣٥٤

(٢) المفردات (جرى) ١٠٤ وبصائر ذوي التمييز (جرى) ٣٧٨/٢ . وهو في المطبوع مــن المفردات : (وأصله كمر الماء) . وما أثبته موجود عنه في التاج .

(٣) تاج العروس (جرى) ٧١/١٠

(٤) المغرب (جرى) ٥٢

وإذا صح ذلك ؛ يكون هذا المجاز من المجازات المنسية ، التي تستعمل على أنها معان حقيقية، ويكون هذا التطور قديمًا ؛ فقد ورد في الأدب القديم ، كما في قول الحُصَيْن بن الحُمَام المُرِّيّ (جاهلي وقيل : أدرك الإسلام) [1]:

وحَيَّ مَنَافٍ قد رَأَيْنَا مَكَــانَهُمْ وقُرَّانَ إذْ أَجْرَى إلَيْنَا وأَلْجَمَا[2]

أي (أجرى الخيل وألجمها) [3].

و(قال أبو ذُؤَيب :

يُقَرِّبُه للمُسْتَضِيفِ إذا دَعا جِراءٌ وشَدٌ كالحَرِيقِ ضَــرِيجُ

أراد جَرْيَ هذا الرجل إلى الحرب) [4] . والجِرَاء مصدر جَرَى ، كالجَرْي [5].

كما ورد في قوله تعالى : ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الــرِّيحَ عَاصِــفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ** ﴾ [6].

---

(١) انظر : الإصابة ١٧٢/٢

(٢) المفضليات (مفضلة : ١٢ بيت : ٣٤) ص ٦٨ والبيت من الطويل .

(٣) نفسه ٦٨ حاشية ٣٤

(٤) اللسان (جرى) ٤١٥/٢ والبيت من الطويل .

(٥) انظر : السابق (جرى) ٤١٥/٢

(٦) سورة الأنبياء من الآية : ٨١

التـــدلـــي

ذكر الكفوي أن (التَّدَلِّي : هو الامتداد من عُلْو إلى سُفْل . هذا أصله ثم استعمل في القُرْب من [العُلْو] [1]، ويكون حسًـــا أو معنى ، كالدُّنُو) [2].

وقد حكي هذا القول عن الفـــراء ، روى الواحـــدي (ت ٤٦٨هـــ) أنه قال : (معنى التدلِّي: الامتداد إلى جهـــة السُّـــفْل ، يقال تَدَلَّى العِذْقُ تَدَلِّيًا ، هذا هو الأصل ، ثم يستعمل في القـــرب من العُلو)[3] . وقال المناوي بذلك أيضا [4].

وذلك تطور دلالي بانتقال المعنى ، طريقه المجاز المرسل ؛ فالقرب مسبب عن الامتداد . قال القرطبي : (أصل التـــدلي : النزول إلى الشيء حتى يقرب منه ، فوضع موضع القرب) [5].

---

(١) في المطبوع من الكليات : [العيوب] . والتصويب من شرح النـــووي لصـــحيح مســـلم ١١/٣ والبحر المحيط ٦/١٠ والتوقيف على مهمات التعاريف ٩٣

(٢) الكليات (فصل الدال) ٤٥١

(٣) التفسير البسيط للواحدي ١٦/١ ، وعنه في شرح النووي لصحيح مسلم ١١/٣ (في شرح حديث مسروق " قال قلت لعائشة فأين قوله : ثم دنى في تدلى ... " كتاب الإيمان – باب ما جاء في رؤية الله عز وجل) ، وانظر : البحر المحيط ٦/١٠ .
والعِذْقُ : القِنْوُ من النَّخْل ، والعُنْقُود من العنب ، وجمعه أَعْذَاقُ وعُذُوق. اللسان (عـــذق) ٢٨٨/٤ .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ٩٣

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٨٩/١٧

ويقال في المعنى الأصلي : (لا يكون التدلي إلا من عُلْو إلى استِفَال ، تدلَّى من الشجرة)[١]. ومنه قول لبيد يصف فرسًا [٢]:

فَتَدلَّيْتُ عَلَيْهَا قَافِلاً وعَلَى الأرْض غَيَايَاتُ الطَّفَلْ[٣]

أراد أنه نزل من مَرْقَبَتِه وهو على فَرَسه راكبٌ[٤].

ومن هذا الأصل في كلامنا : دَلَّى رِجْلَه من السَّرير .

وهذا المعنى الأصلي حسي ، وأما ما انتقل إليه معنى التدلي – وهو القرب – فإنه يكون حسيًا ومعنويًا ، كما ذكر الكفوي .

ومن دلالته على القرب الحسي – والله أعلم – قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [٥] . قال الطبري : (دنا جبريل من محمد

---

(١) اللسان (دلو) ٤٠٩/٢

(٢) البيت من الرمل في ديوانه : ١٤٥والمقاييس (طفل) ٤١٣/٣ و (غى) ٣٧٩/٤ والصحاح (دلو) ٢٣٤٠/٦ والجامع لأحكام القرآن ٨٩/١٧ واللسان (دلو) ٤٠٩/٢ و(غيا)٨٠/٥

(٣) الغَيَابةُ : ضوء شعاع الشمس . والطَّفَل : إقبال الليل على النهار بظلمته . اللسان (غيا) ٨٠/٥ و(طفل) ١٨٤/٥

(٤) انظر : اللسان (دلو) ٤٠٩/٢

(٥) سورة النجم آية : ٨

صلى الله عليه وسلم فتدلى إليه . وهذا من المؤخر الـذي معنـاه التقديم ، وإنما هو ثم تدلى فدنا) [١].

وقال ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) كـذلك : (أي فـاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض ، حتى كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ ﴾ .. ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾) [٢].

ومن دلالته على القرب المعنوي : ما ورد في الأساس : (ومن المجاز ... فلان يتدلى على الشر) [٣].

رُبَّ

قال الكفوي : (رُبَّ : كلمة تقليل وتكثير ، الأول مجاز ، والثاني حقيقة مرغوبة) [٤] . أي استعمالها فيه أكثر .

فرُبَّ لها معنى حقيقي أو أصلي وضعت له ، وهو التكثير ، ومعنى آخر مجازي وهو التقليل، كما يرى الكفـوي . وهـذا تطور دلالي بانتقال المعنى .

---

(١) جامع البيان ٢٦/٢٧

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣٩٧/٣ ، وانظر : معجم ألفاظ القرآن الكـريم (دلـو) ٢٣١/٢ والآية من سورة النجم : ٩

(٣)أ ساس البلاغة (دلى) ١٣٥

(٤) الكليات (فصل الراء) ٤٨٢

ويحسب للكفوي هذا التتبع التاريخي لدلالة الكلمة ، فالذين ذكروا أنها تفيد المعنيين غاب عنهم هذا ؛ كابن هشام (ت ٧٦١ هـ) الذي ذكر أن رُبَّ (ترد للتكثير كثيرا ، وللتقليل قليلا) (١).

وليس ذلك محل اتفاق بين العلماء ؛ فأكثرهم على أن " رُبَّ " وضعت للتقليل ، كالزجاج ، وابن فارس ، وابن سيده ، والبغوي ، والنسفي (٢) وغيرهم(٣) .

وذهب سيبويه (٤) وابن درستويه (٥) إلى أنها للتكثير دائمًا

وذهب آخرون - كما حكى صاحب القاموس وغيره - إلى أنها (لهما ، أو في موضع المباهاة للتكثير ، أو لم توضع لتقليل ولا تكثير ، بل يستفادان من سياق الكلام) (٦).

---

(١) مغني اللبيب ١٥٤/١

(٢) انظر : معاني القرآن للزجاج ١٧٢/٣ والصاحبي ٢٢٨ والمقاييس (رب) ٣٨٤/٢ والمحكم (ربب) ٢٣٩/١٠ ومعالم التنزيل للبغوي ٥٥/٤ ومدارك التنزيل للنسفي ٢٦٨/٢

(٣) انظر : تقويم اللسان ١١٣ وشرح المفصل ٢٦/٨-٢٧ ولباب التأويل للخازن ٥٥/٤ وغرائب القرآن ٥/١٤ . وفي تهذيب اللغة (رب) ١٨٣/١٥ : (قال النحويون ... رُبَّ للتقليل وكَمْ وضعت للتكثير) . وذلك عنه في اللسان (ربب) ١٧/٣ والتاج (ربب) ٤٧٦/٢

(٤) انظر : الكتاب ١٥٦/٢ ، ١٦١ وشرح التسهيل لابن مالك ١٧٤/٣ ، ١٧٧

(٥) انظر : المغنى ١٥٤/١ والتاج (ربب) ٤٧٦/٢

(٦) القاموس المحيط (رب) ٧١/١ وذلك في التاج (ربب) ٤٧٦/٢ – ٤٧٨ وانظر : المعجم الوسيط (رب) ٣٣٣/١ .

وكلٌّ ينتصر لرأيه ؛ حتى قال الزجاج : (فأما من قال إن " رُبَّ " يُعنى بها الكثير ، فهذا ضد ما يعرفه أهل اللغة) [١].

وقد انبرى أبو حيان لمناقشة هذه الآراء ، وتقرير الواقع فقال : (رُبَّ حرف جر ... ومعناها في المشهور : التقليل لا التكثير ، خلافا لزاعمه وناسبه إلى سيبويه [٢] ، ولمَنْ قال لا تفيد تقليلا ولا تكثيرا ، بل هي حرف إثبات . ودعوى أبي عبد الله الرازي : الاتفاق على أنها موضوعة للتقليل [٣]، باطلة . وقول الزجاج إن رُبَّ للكثرة ضد ما يعرفه أهل اللغة ، ليس بصحيح) [٤].

وهذا كلام جيد ، يقوم على الوصف والتقرير .

ونفهم من " رُبَّ " في كلامنا معنى تقليل الشيء ، فلو قال أَحَدٌ : ربَّما جئتك ، رُبّما أقوم بهذا : يستقر في ذهن المخاطَب أن نسبة وقوع ذلك قليلة .

---

(١) معاني القرآن ١٧٣/٣ وعنه في التهذيب (رب) ١٨٣/١٥ ومفاتيح الغيب ٣٨٠/٩ واللسان (ربب) ١٧/٣ والتاج (ربب) ٤٧٧/٢ ، وقال بهذا أيضا النسفي في مدارك التنزيل ٢٦٨/٢

(٢) تقدم توثيق هذا الرأي لسيبويه من كتابه وغيره أيضا .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب ٣٨٠/٩

(٤) البحر المحيط ٤٦٢/٦ (في آية الحجر : ٢)

الشريعة

قال الكفوي : (الشَّرِيعَة : هي مَوْرد الإبل إلى الماء ، ثم استعير لكل طريقة موضوعة بوضع إلهي ثابت من نبي من الأنبياء) [(١)].

فهذا انتقال للمعنى بالاستعارة . وذكره الراغب والفيروزآبادي أيضا [(٢)].وسوغ هذه الاستعارة ذلك التشابه بين شريعة الماء وشريعة الدِّين في أنهما طريقان للرِّيِّ والحياة [(٣)].

إذ الشريعة ، بمعنى مورد الإبل إلى الماء ، هذا هو معناها في كلام العرب ، كما يقول اللغويون [(٤)] ، ويدل عليه قول امرئ القيس يصف حُمُرًا وحشية :

ولَمّا رَأَتْ أنَّ الشَّرِيعَةَ هَمُّهَا وَأَنَّ البَيَاضَ مِنْ فَرَائِصِهَا دَامِى[(٥)]

---

(١) الكليات (فصل الشين) ٥٢٤

(٢) المفردات (شرع) ٢٩٠ وبصائر ذوي التمييز (شرع) ٣٠٩/٣

(٣) انظر : المفردات (شرع) ٢٩٠ وأنوار التنزيل ٢٦٥/١ وتاج العروس (شرع) ٢٥٩/٢١ وروح المعاني ٣٢١/٣

(٤) انظر : تهذيب اللغة (شرع) ٤٢٥/١ واللسان (شرع) ٤٢١/٣ والتاج (شرع) ٢٦٠/٢١

(٥) البيت من الطويل في ديوانه (ق ٨٦ / ١) ص : ١٦١ والأغاني ١٩٨/٨ وبلا عزو في المقاييس (شرع) ٣ / ٢٦٢

والفَرَائص جمع فَرِيصَة : وهي اللحم الذي بين الكتف والصدر . (اللسان " فرص " ١١٣/٥) .

وقول مُتَمِّم بن نُوَيْرَة :

لاقَى عَلَى جَنْبِ الشَّرِيعَةِ لاطِئا   صَفْوَانَ في نامُوسِهِ يَتَطَلَّعُ[١]

ومن الشريعة بمعنى الطريقة الإلهية من الدين قوله تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[٢] و(الشِّرْعة هي : الشريعة) [٣] ، وقوله عز وجل : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ**﴾[٤]. وهذا المعنى هو الذائع في العربية المعاصرة .

الشَّطْر

قال الكفوي : (الشَّطْر : شَطَرَ عنه : أبعد ، وشَطَرَ إليه : أقبل . وهو في الأصل لما انفصل عن الشيء ، ثم استعمل لجانبه وإن لم ينفصل ، كالقُطْر) [٥].

يعد ذلك انتقالاً دلاليًا . وقد ذكره البيضاوي والألوسي أيضا [٦].

---

(١) البيت من الكامل في المفضليات (مفضلية ١٥/٩) ص : ٥٠ . ولاطِئا : لاصقا (الصحاح " لطأ " ٧١/١

(٢) سورة المائدة من الآية : ٤٨

(٣) جامع البيان للطبري ١٧٤/٦ وانظر: التهذيب (شرع) ٤٢٥/١ واللسان (شرع) ٤٢١/٣

(٤) سورة الجاثية من الآية : ١٨

(٥) الكليات (فصل الشين) ٥٣٩

(٦) أنوار التنزيل ٩٣/١ وروح المعاني ٤٠٨/١

ويقول النووي : (أصل الشَّطْر : النصف) [1] . ولذلك قال المُناوي : (استعمال الشَّطر في مطلق الجزء تجــوُّز) [2] لأنه للنصف أصلاً.

بينما تذكر المعجمات أن (الشّطر : نصــف الشــيء ... وشَطْر الشيء ناحيته) [3] ، بلا تنبيه على الأصل في الدلالة !

والشَّطْر ، بمعنى النصف ، يدل عليه المثلُ : (" احْلُــبْ حَلْبًا لك شَطْره" [4] أي نصفه)[5].

وكذا حديث سعد بن أبي وقاص: (يا رسول الله أُوصــي بمالي كله ؟ قال لا . قلتُ : فالشَّطْر ؟ قال : لا . قلت : الثُّلُثُ ؟ قال : فالثلث ، والثلث كثير...) [6] .

ومن الشَّطْر بمعنى الناحية أو الجانب : قول خُفَــافِ بــن نُدْبَةَ (شاعر مخضرم) [1]:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٠/٣ (في كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء حــديث : الطّهُور شَطْر الإيمان) وعنه في شرح السيوطي لسنن النسائي ٥/٥ (في كتاب الزكاة – باب وجوب الزكاة) .

(٢) فيض القدير ٤٨٤/١

(٣) المحكم (شطر) ١٢/٨-١٣ واللسان (شطر) ٤٣٥/٣ ، وانظــر (شــطر) في : العــين ٢٣٣/٦ والجمهرة ٧٢٥/٢ والتهذيب٣٠٧/١٢ – ٣٠٨ والمقاييس ١٨٦/٣ والصــحاح ٦٩٧/٢ والأساس ٢٣٥ والمصباح ٣١٢/١ والقاموس ٥٧/٢ والتاج ١٦٨/١٢ – ١٦٩

(٤) جمهرة الأمثال ٧٤/١

(٥) التهذيب (شطر) ٣٠٧/١٢

(٦) صحيح البخاري – كتاب الوصايا – باب (٢) حديث : ٢٧٤٢ (فتح الباري ٤٢٨/٥).

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ عَمْرًا رَسُولاً وَمَا تُغْنِى الرَّسالَةُ شَطْرَ عَمْـــرِو[٢]

وقول سَاعِدَةَ بن جُؤَيَّة (شاعر مخضرم) [٣]:

أَقُولُ لأُمِّ زِنْبَاعٍ : أَقِيمِـــي صُدُورَ العِيسِ شَطْرَ بني تَمِيمِ[٤]

مما يعني أن هذا التطور الدلالي قديم ، وأن المعنى القديم عاش مع المعنى الجديد ، ولم يمت.

وقد اختلف المفسرون لذلك في المراد من " الشَّطْر " فـــي قوله عز وجل : ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْــجِدِ الحَــرَامِ** ﴾ [٥] ، فذهب أكثرهم إلى أن المراد منه جهة المسجد وجانبــه . وقـــال بعضهم : المراد وسط المسجد ومنتصفه ؛ لأن الشَّطْر هو النصف ، والكعبة واقعة من المسجد في النصف من جميع الجوانب [٦].

---

(١) الإصابة ٤٨٣/٢

(٢) البيت من الوافر ، وهو من شواهد الرسالة للشافعي ١٢٢ فقرة ١٠٦ وعنـــه في مفـــاتيح الغيب ٤٩١/٢

(٣) الإصابة ٣٦٣/٣

(٤) البيت من الوافر ، وهو من شواهد الرسالة للشافعي ١٢٢ فقرة : ١٠٧ وعنه في مفـــاتيح الغيب ٤٩١/٢ ، ونسب لأبي زِنْبَاعٍ الجُذَامِي في حواشي ابـــن بـــرى (شـــطر) ١٤٠/٢ واللسان (شطر) ٤٣٥/٣ ، وبلا عزو في المقاييس (شطر) ١٨٨/٣ والصحاح (شـــطر) ٦٩٧/٢

(٥) سورة البقرة من الآية : ١٤٤

(٦) انظر : مفاتيح الغيب ٤٩٢/٢ والبحر المحيط ٢٣/٢-٢٤

ونستعمله في العربية المعاصرة للدلالة على ذلك ، وعلى الأجزاء الصغيرة الدائرية وشبه الدائرية المقطوعة من الشـــيء . قال دوزي في التكملة : (شَطَرَ : قطع البِطِّيخة عدة قطــع ، أو عدة أسهم ، أي : عدة أَشْطُر) (١) .

الصَّفْقَة

قال الكفوي : (الصَّفْقَة: ضرب اليد على اليد في البيــع والبَيْعَة ، ثم جعلت عبارةً عن العَقْد نفسه) (٢).

فهذا انتقال للمعنى بالمجاز المرسل ، سوغته العلاقة بــين المعنيين ، وهي السببية ؛ فضرب اليد على اليد عند وجوب البيع سبب في العقد .

وقد نص المُطَرِّزِيُّ على هذا التطور الدلالي (٣) . كمــا ذكره الفيومي ، وأشار إلى أن الأصل في تسمية الصــفقة بــذلك يرجع لعادة قديمة في المجتمع العربي قال: (صَفَقْتُه على رأســه صَفْقًا من باب ضرب : ضربته باليد . وصَفَقْتُ له بالبيعة صَــفْقَا أيضا : ضربت بيدي على يده . وكانت العرب إذا وجــب البيــع

---

(١) تكلمة المعاجم العربية (شطر) ٣٠٨/٦

(٢) الكليات (فصل الصاد) ٥٦٣

(٣) المغرب في ترتيب المعرب (صفق) ١٥٤

ضرب أحدهما يده على يد صاحبه ، ثم استعملت الصفقة في العقد ، فقيل : بارك الله لك في صفقة يمينك) [١].

وذكر ابن فارس أيضا هذه العادة العربية حيث قـال : (الصَّفْقَة : ضرب اليد على اليد في البيع والبيعة ، وتلـك عـادة جارية للمتبايعين) [٢] . (وبقى اللفظ وذهبت عادة الصفق) [٣].

ومن هذا التطور الدلالي في الحديث النبوي الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : " البَيِّعانِ بالخِيَار مالم يَتَفَرَّقَا ، إلا أن تكون صَفْقَةَ خِيارٍ " [٤].

وقوله صلى الله عليه وسلم : " ... ومَنْ بايَعَ إمامًا فأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وثَمَرَةَ قلبِه فلْيُطِعْه إنْ استطاع ... " [٥].

والصفقة في البيع والشراء كلمـة ذائعـة فـي العربيـة المعاصرة .

---

(١) المصباح المنير (صفق) ٣٤٣/١ ، وانظر : التعريفات (الصفقة) ١٧٥ والحدود الأنيقـة ٧٤ وكشاف اصطلاحات الفنون (الصفقة) ١٠٨٠/٢

(٢) المقاييس (صفق) ٣ / ٢٩٠

(٣) فقه اللغة لمحمد المبارك ٢١٥

(٤) سنن الترمذي ٥٥٠/٣ كتاب البيوع – باب (٢٦) ما جاء في البَيِّعَيْن بالخيار مالم يتفرقـا ، حديث : ١٢٤٧

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٣٣/١٢ كتاب الإمارة – باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفـة الأول فالأول .

الغُــول

ذكر الكفوي في تعريف الغُول أن (كل ما اغتال الإنسان فأهلكه ، فهو غُول . والعرب تسمى كل داهيــة غُــولاً ، علــى التهويل والتعظيم ، على ما جرت به عادتهم فيما لا أصل له ولا حقيقة ؛ كالعَنْقَاء. وقال بعضهم : الغُول نوع من الجن كان يغتال الناس بَغْتَة ، بحيث لا يُعْرف له مكان حتى يُطْلَب ، ثم اســتعمل غَوْل الغُول في انتفاء أمر بحيث لا يُرى منه أَثَرٌ) [(١)].

على القول الأخير ، يكون اللفظ قد تغير معناه ، بانتقــال دلالته ، عن طريق الاستعارة ، لعلاقة المشابهة في ذهاب الشيء واختفاء أثره وإهلاكه .

ومما يدل على هذا التطور ويوضحه ، قول العرب فــي أمثالها : (" الغَضَبُ غُولُ الحِلْم " [(٢)] لأنه يغْتَالُه ويَذْهَب به .... وهذه أرض تَغْتَال المشيَ ، أي لا يَسْتَبِينُ فيها المشيُ ، من بُعْدِها وسَعَتها . قال العجاج:

---

(١) الكليات (فصل الغين) ٦٦٣

(٢) المستقصي في أمثال العرب ٣٣٧/١ (مثل رقم : ١٤٥٠) ومجمع الأمثال ٦١/٢ (مثــل رقم : ٢٦٤٨) ، وذكره الزمخشري أيضا في الكشاف ٤٣/٤ (في سورة الصافات في الآية : ٤٧)

وَبَلْدَةٍ بَعِيــدَةِ النِّيَــاطِ مَجْهُولَةٍ تَغْتَالُ خَطْوَ الخَاطي[١])[٢]

وفي ذلك دلالة على أن هذا التطور قديم .

وتذكر المعجمات مع هذا المعنـى المتطـور ، المعنـى الأصلي للغول ، إلا أنها تقول : هو شيطان يأكل الناس ، أو كل ما اغتالك من جن أو شيطان أو سَبُع فهـو غـول [٣] ، أو هـو حيوان من السَّعَالي[٤] . ولكنها أغفلت التنبيه على تدرّج الدلالة ، وأن أحد المعنيين متأخر في الوجود عن الآخر!

والغُولُ في العربية المعاصرة صورة خيالية لحيوان فظيع تخاف به الغلمانُ الصغار [٥] ، وهي رمز للقوة وكثرة الأكـل ، من ذلك في الأمثال العامية : (" غُوله عَمَلِت فَرَحْ قَالْ يِكْفِيهَا وَالاَّ يِكْفِي وْلاَدْهَا " . الغولة عندهم من الوحـوش الفظيعـة ، وهـم يصفونها بكثرة الأكل فيقولون : فلان ياكل زي الغول أو الغولة ،

(١) البيت من الرجز في ديوانه (ق ١/٢٠) ص ٢٠٤ والتهذيب ١٩٢/٨ واللسـان ٧٣/٥ والتاج ١٣٣/٣٠ (غول) . ونِيَاط المَفَازة : بُعْد طريقها كأنها نِيطت بمفازة أخـرى لا تكـاد تنقطع . اللسان (نوط) ٢٧٨/٦

(٢) الصحاح (غول) ١٧٨٦/٥ ، وانظر ذلك أيضا في : التهذيب ١٩٢/٨ ، ١٩٥ واللسان ٧٢/٥-٧٣ والتاج ١٢٩/٣٠ ، ١٣٣ (غول) .

(٣) انظر : التهذيب ١٩٤/٨ واللسان ٧٣/٥ والتاج ١٣٠/٣٠ (غول)

(٤) انظر : المقاييس ٤٠٢/٤ والصحاح ١٧٨٦/٥ والمصباح ٤٥٧/٢ (غول)

(٥) تؤنث هذه الكلمة في هذا السياق في العامية المصرية فيقال : الغُولَهْ ويقال كـذلك : أُمِّنـا الغُولَهْ .

فهم يتساءلون عن هذا العرس الذي أقامته أهو كاف لأكلها وأكل أولادها حتى تدعو الناس إليه) [(١)].

أفــلس

قال الكفوي : (أَفْلَس الرجل : أي صار ذا فَلْس بعــد أن كان ذا دِرْهم ودينار ، فاستعمل مكان افتقر) [(٢)].

هذا انتقال دلالي بالمجاز المرسل ، وقد ســوغته علاقــة السببية ، إذ الفُلُوس عملة عند العرب كانت قيمتها الشرائية أقــل من الدراهم والدنانير ، فمن تحوّل عنهما إليها يكون فقيرًا .

فــ (الفَلْس : عُملة يتعامل بها مضروبة من غير الذهب والفضة وكانت تقدَّر بسُدس الدرهم . وهي تساوي اليوم جزءًا من ألف من الدينار في العراق وغيره) [(٣)].

والفلس عملة كانت في العراق ، قبل غزو أمريكا لها في ٢٠٠٣/٣/٢٠ ، وكان الدينار العراقي يساوي مائة فلــس . ممــا يعني أن المعنى القديم احتفظت به بعض البيئات العربية الحديثة .

وفي فتح الباري : أن (المُفْلِس ... سمي مُفْلِسًا لأنه صار ذا فُلُوس بعد أن كان ذا دراهم ودنانير ، إشارة إلى أنه صــار لا

---

(١) الأمثال العامية لأحمد تيمور ٣٥١ (مثل رقم ٢٠٧٢)

(٢) الكليات (فصل الألف والفاء) ١٥٥ . وكلمة " فَلْس " جمعها أَفْلُسٌ في القلة ، وفُلُوسٌ في الكثرة . انظر : الصحاح (فلس) ٩٥٩/٣ والتاج (فلس) ٣٤٣/١٦

(٣) المعجم الوسيط (فلس) ٧٢٦/٢

يملك إلا أدنى الأموال ، وهي الفُلُوس ... أو لأنه صار إلى حالة لا يملك فيها فَلْسًا ؛ فعلى هذا فالهمزة في أَفْلَس للسلب) [(١)].

ويوجد في الأدب القديم ما يشير إلى قدم هذا الانتقال الدلالي ، قال ابن دريد : (الفَلْس : عربي معروف .. وهي كلمة عربية وإن كانت مبتذلة .

قال الشاعر :

وقَدْ ضَمُرَتْ حتَّى بَدَتْ من هُزالِها كُلاَها وحتَّى استَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

وهذا شعر قديم) [(٢)].

وأنشد الجاحظ – ولم يعيِّن اسم القائل – :

أَصْبَحْتَ مَا لَكَ غيْرُ جِلْدِكَ تَلْبَسُ قَطرَ السماءِ وأنتَ عارٍ مُفْلِسُ[(٣)]

ومنه حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ أدركَ مالَه بِعَيْنِه عند رَجُل أو إنسان قد أَفْلَسَ فهو أحقُّ به من غيره " [(٤)].

---

(١) فتح الباري ٧٦/٥ (في الحديث رقم : ٢٤٠٢)

(٢) الجمهرة (فلس) ٨٤٧/٢ والبيت من الطويل . واسْتَامَهَا كلُّ مفلس ، يعني : عَرَضَ على البائع ثمنها . انظر : اللسان (سوم) ٣٧١/٣

(٣) الحيوان ١٧٣/٦ والبيت من الكامل

(٤) البخاري – كتاب الاستقراض – باب (١٤) إذا وجد ماله عند مفلس في البيع والقرض والوديعة فهو أحق به حديث : ٢٤٠٢ (فتح الباري ٧٦/٥) وصحيح مسلم بشرح النووي ٢٢١/١٠ كتاب المساقاة – باب من أدرك ما باعه عند المشتري وقد أفلس فله الرجوع فيه والرواية هنا للبخاري .

وقد أثبت أصحاب المعجمات هذا التطور الدلالي ، كما في التهذيب : (الفَلْس: معروف ، وجمعه فُلُوسٌ . وأفْلَس الرجل : إذا صار ذا فُلُوس بعد الدراهم . وقد فلَّسه الحاكم تَفْلِيسًا ... وأَفْلَسَ الرجل : إذا لم يبق له مال) [١].

ويقول الجوهري : (أَفْلَسَ الرجل : صار مُفْلِسًا ، كأنما صارت دراهمه فُلُوسا وزُيُوفًا ... ويجوز أن يراد به أنه صار إلى حال يقال فيها : ليس معه فَلْس) [٢] . وعلى هذا الوجه الأخير تكون الهمزة للسلب ، كما ذكر ابن حجر ، ولا تطور هنالك .

ونفهم في العربية المعاصرة من أَفْلَس : معنى افتقر ، يقال فلان مُفْلِس ، وأشهرت الشركة إفلاسها . مما يعني استمرار هذا التطور الدلالي .

وبالإضافة لهذا المعنى نعبر في مصر بكلمة " الفُلُوس " عن المال مطلقا ، قليلا أو كثيرا . مع أنه ليست لنا عملة نقدية أو ورقية الآن تعرف بهذا الاسم أصلاً .

---

(١) التهذيب (فلس) ٤٢٩/١٢ ، وانظر: المقاييس (فلس) ٤٥١/٤ والمحكم (فلس)٥٠٣/٨

(٢) الصحاح (فلس) ٩٥٩/٣ ، وانظر : اللسان (فلس) ١٥٦/٥ والمصباح (فلس) ٤٨١/٢ والقاموس (فلس) ٢٣٥/٢ والتاج (فلس)٣٤٣/١٦-٣٤٤

الاقتباس

قال الكفوي : (الاقتباس : هو طلب القَبَس ، وهو الشعلة من النار ثم ، يستعار لطلب العلم ، يقال اقتبست منه علمًا) [1].

فهذا انتقال دلالي ، بالاستعارة ، لعلاقة المشابهة بين طلب شعلة النار ، وطلب العلم في الهداية والإفادة .

وذلك ما قرره اللغويون ، كابن فارس الـــذي ذكـــر أن (القاف والباء والسين أصل صحيح يدل على صفة من صفات النار ، ثم يستعار . من ذلك القَبَس : شعلة النار ... ويقولون : أقبستُ الرجل علْمًا) [2].

وكالراغب الذي بيَّن أن اللفظ بدلالتيه: اللغوية والمتطورة ، حيث قال في القرآن الكريم . قال: (القَبَس: المتناول من الشعلة ، قال : (أَوْءاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ) [3]).

والقبس والاقتباس طلب ذلك ثم يســـتعار لطلـــب العلـــم والهداية قال : ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ [4]) [5].

---

(١) الكليات (فصل الألف والقاف) ١٥٥–١٥٦

(٢) المقاييس (قبس) ٥/٤٨

(٣) النمل من الآية : ٧ وهناك أيضا قوله تعالى في سورة طه في الآية : ١٠ ، على لسان موســـى عليه السلام أيضا – : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ .

(٤) سورة الحديد من الآية : ١٣

(٥) المفردات (قبس) ٤٣٦

ومن شواهد التهذيب على المعنى الأخير قول الشاعر:

لا تُقْبِسَنَّ العِلْـمَ إلاَّ امْـرَءًا   أعانَ باللُّبِّ عَلَى قَبْسِهِ(١)

مما يعني أن هذا التطور الدلالي قديم .

وذكر الزمخشري أيضا هذا التطور . قال : (خُذْ لِي قَبَسًا من النار ... ومن المجاز : قَبَسْتُه عِلْمًا وخبرًا) **(٢)**.

ولا تعرف العربية المعاصرة القَبَس بمعنى الشعلة من النار ، أو النار ، وتعرف بعضَ المشتقات الحديثة من هذه المادة ، بين دلالتها عليه وبين المعنى اللغوي القديم صلة قوية ، كأسماء بعض الأدوات الكهربية الحديثة ، وقد أقر المجمع هذه الألفاظ . ورد في المعجم الوسيط : (القابِس : أداة ذات شعبتين أو أكثر توصل بالمَقْبِس لتستمدَّ منه التيار الكهربي ...

المَقْبِسُ : الموضع الذي يوصل به القابِس لاستمداد التيار الكهربي) **(٣)**.

وأما ما تطورت إليه دلالة القبس فهو معروف في العربية المعاصرة ؛ يقال مثلاً اقتبسَ هذا النص ، أو هذه الفكرة : أي

---

(١) التهذيب (قبس) ٤١٩/٨ بلا عزو ، والبيت من السريع .

(٢) الأساس (قبس) ٣٥٢

(٣) المعجم الوسيط (قبس) ٧٣٧/٢ ، ويبدو أن " كُبْس الكهرباء " في العامية المصرية محرف عن هذا ، ويساعد على هذا الاعتقاد إحالة المعجم الوسيط في تعريف الكُبْس على مادة " قبس " زيادة في التوضيح . انظر : المعجم الوسيط (كبس) ٨٠٤/٢

أخذها ونقلها. واقتبسَ من القرآن الكريم ، أو السنة ، أو الشعر ... وما إلى هذا .

قَبْلُ

قال الكفوي : (قَبْلُ : هي في الأصل من قبيل ألفاظ الجهات الست الموضوعة لأمكنة مبهمةُ[(١)] ، ثم استعيرت لزمان مبهم سابق على زمان ما أضيفت هي إليه ؛ لمشابهة بينه وبين معناها الأصلي) [(٢)].

فالكفوي يشير إلى أن لفظ " قَبْل " موضوع في أصل اللغة للدلالة على المكان ، ثم انتقل معناه للدلالة على الزمان ، للمشابهة بين هذين المعنيين في الإبهام ، الذي لا يتميز إلا بالإضافة .

والعناية بحياة هذا اللفظ وتدرّج ظهور معنييه هذين ، مما يحسب للكفوي ، إذ يكتفى بعض العلماء بالقول بأنه ظرف [(٣)] ، أو ضد بَعْدُ [(٤)] كما في كثير من معجمات اللغة ، أو أنه ظرف

---

(١) الجهات الست هي : أمام وخلف ، فوق وتحت ، يمين وشمال (شرح التصريح على التوضيح ٣٤١/١) .

(٢) الكليات (فصل القاف) ٧٣٦

(٣) الكتاب ٢٣٣/٤

(٤) الجمهرة (قبل) ٣٧٢/١ وانظر : التهذيب ١٦٢/٩ والصحاح ١٧٩٥/٥ والمحكم ٤٢٥/٦ واللسان ١٩٢/٥ والقاموس ٣٣/٤ (قبل)

للزمان والمكان [1] ، وبتعبير المعجم الوسيط : (قَبْل : ظـرف للزمان السابق ، أو المكان السابق ، وضده : بَعْدُ ، وهو مبهم لا يفهم معناه إلا بالإضافة لفظًا ، مثل : جاء فـلان قبـل فـلان ، وداري قبل داره ؛ أو تقديرًا كما في التنزيل العزيز : ﴿ **لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ** ﴾) [2] . أي (من قبل أن يُغْلَب الروم ومن بعد ما غَلِبَتْ) [3].

وما ذكره الكفوي يحل مشكلة شذوذ " قَبْل " عن بابه عند ابن فارس ، فقد وجد أنه يدل على الزمان ، في حين أن المـادة تدل أصلاً على المكان ، ولو أنه أخذ بتطور دلالته ، أو التفت إليه لاطرد الباب كله .

يقول ابن فارس : (القاف والباء واللام أصل واحد تـدل كَلِمُهُ كلها على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرع بعد ذلك . فالقُبُـل من كل شيء خلاف دُبُره ... والقِبْلة سميت قِبْلة لإقبـال النـاس عليها في صلاتهم ، وهي مقبلة عليهم أيضا ... فأما قَبلُ الذي هو خلاف بَعْدُ ، فيمكن أن يكون شاذًا عن الأصل الذي ذكرناه ، وقد يُتَمَحَّل له بأن يقال هو مقبل على الزمان . وهو عندنا إلى الشذوذ

(١) انظر : المفردات ٤٣٧ والبصائر ٢٣٤/٤ والتاج ٢٠٦/٣٠ ومعجم ألفاظ القرآن الكـريم للمجمع ١١/٥ (قبل) . وفي روح المعاني ١٨٥/١ أيضا: (قَبْل : ظرف زمان بكثرة ، ومكان بقلة ، ويتجوز بها عن التقدم بالشرف والرتبة) .

(٢) المعجم الوسيط (قبل) ٧٣٩/٢ ، والآية من سورة الروم : ٤

(٣) معاني القرآن للزجاج ١٧٦/٤

أقرب)[1]. ولِمَ هذا التمحل ، أو القول بالشذوذ وقَبْلُ يدل في الأصل على المكان ؟!.

على أن ابن فارس يقدم هنا درسًا في أدب البحث ؛ فهو أمين لم يقطع بأن اللفظ شاذ عن الباب، ومتواضع ، لم يدَّع أن هذا هو القول الفصل في المسألة ، حيث استعمل كلمتي : يمكن وعندنا، كما رأينا .

القـــرب

قال الكفوي : (القُرْب : قَرُب ، قد يجئ من باب عَلِمَ ، فمعناه : دنا ، فيتعدى بغير صلة ومنه القِربان [2] ، بالكسر : وهو الدُّنُوّ ، ثم استعير للمجامعة) [3].

فالقرب انتقل معناه من الدُّنو – وهو معناه اللغوي [4] – إلى الجماع . وذلك للصلة القوية بين المعنيين ؛ إذ الدنو سبب في الجماع .

---

(١) المقاييس (قبل) ٥/٥١-٥٤

(٢) مصدر لقَرُب كالقُرْب والقُرْبان أيضًا . انظر : اللسان (قرب) ٥/٢٢٠

(٣) الكليات (فصل القاف) ٧٢٣

(٤) في اللسان (قرب) ٥/٢٢٠ : (القُرْب : نقيض البُعْد . قَرُبَ الشيء ، بالضم يَقْرُبُ قُرْبًا وقُرْبانًا وقِرْبانًا ، أي دنا) . وانظر : القاموس (قرب) ١/١١٣ والتاج (قرب) ٤/٥

ولا يريد الكفوي بقوله (ثم استعير للمجامعة) الاستعارة البلاغية ؛ فليس بينهما مشابهة ، وإنما يريد أنه أخذ ونُقل للدلالة على هذا المعنى .

وهذا الانتقال الدلالي قديم معروف من العصر الجاهلي ؛ قال الأعشى:

وَلاَ تَقْرَبَنَّ جَارَةً إِنَّ سِرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامٌ فانكِحَنْ أَوْ تَأَبَّدَا(١)

كما ورد في قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ** ﴾ (٢). (أي لا تجامعوهن) (٣).

أو ذلك (كناية عن الجماع) (٤) . بتعبير الراغب وغيره

ومن الغريب أن يعدّ الزمخشري هذا المعنى للكلمة من المعاني الحقيقية (٥) . ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا المعنى قد شاع ، وتعارف الناس عليه ، فلا تتصرف أذهانهم إلى غيره ، إذا قالوا: قَرُبَ فلان أهله . فعدّه من الحقيقة العرفية لذلك .

---

(١) البيت من الطويل في ديوانه (ق ١٧ / ٢٤) ص : ٤٦ والعين (سر) ١٩٠/٧ وإصلاح المنطق ٢١ والتهذيب (نكح) ١٠٢/٤

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٢٢

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٢١٦/١

(٤) المفردات (قرب) ٤٤٦ والبحر ٤٢٤/٢ وبصائر ذوي التمييز (قرب) ٢٥٣/٤

(٥) انظر : أساس البلاغة (قرب) ٣٦٠

وهذه الدلالة معروفة في الاستعمال المعاصر ، وكذلك الدلالة اللغوية .

القريحة

ذكر الكفوي أن (القريحة : البئر أول ما تُحْفَر ، ولا تسمى قريحة حتى يظهرماؤها ، وإطلاقها على الطبيعة بطريق الاستعارة) [1].

وتعبير الكفوي : (القريحة : البئر أول ما تحفر) يقصد به - فيما يبدو - ماء البئر أول ما تحفر، بدليل قوله بعدها : (ولا تسمى قريحة حتى يظهر ماؤها). وقد قال الأزهري : (قريحة الإنسان : طبيعته التي جُبل عليها ، وجمعها قرائح لأنها أول خِلْقته . والقريحة : أول ماءٍ يخرج من البئر حين تُحفر) [2].

ويقول الجوهري أيضا : (القريحة : أول ما يستنبط من البئر ، ومنه قولهم : لفلان قريحة جيدة ، يراد استنباط العلم بجودة الطبع) [3]. ويلاحظ هنا أن الجوهري قد ربط بين المعنيين وبيَّن ما بينهما من علاقة المشابهة .

---

(١) الكليات (فصل القاف) ٧٣٣

(٢) التهذيب (قرح) ٤٠/٤ وورد في اللسان (قرح) ٢٢٤/٥ وانظر : القاموس (قرح) ٢٤١/١

(٣) الصحاح : (قرح) ٣٩٦/١

وقد اهتم الكفوي ببيان أصل معنى القريحة ، وما انتقل إليه هذا المعنى ، وطريق حدوثه وهو الاستعارة .

وقد ذكر ذلك بعض العلماء ، كالراغب [١] ، والزمخشري الذي قال : (شربت قريحة البئر : أول ما استنبط منها ... ومن المجاز ... فلان حسن القريحة ، إذا ابتدع شعرًا أو خطبة أجاد) [٢].

وكشيخ الزَّبيدي ابنِ الطيب الفاسي (ت ١١٧٠هـ) الذي قال عن القريحة ومدلولها الجديد : (وهي قوة تستنبط بها المعقولات . وهو مجاز صرح به غير واحد) [٣].

وكعبد الرؤف المناوي ، إذ قال : (القريحة : أول ما يخرج من البئر ... ثم استعير لطبيعة الإنسان ، من حيث صدور العلم منها ، كالماء ، يقال : لفلان قريحة ، ويراد أنه مستنبط للعلوم) [٤].

وهذا المعنى الأخير للقريحة هو المعروف في الاستعمال المعاصر ، وخصوصًا في الأوساط العلمية والأدبية .

---

(١) المفردات (قرح) ٤٤٨

(٢) أساس البلاغة (قرح) ٣٦٠

(٣) تاج العروس (قرح) ٥١/٧

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ٥٧٩ – ٥٨٠

القـــانـــون

قال الكفوي : (القانون : هـــو كلمـــة سُـــرْيَانية بمعنـــى المَسْطَرَة ، ثم نقل إلى القضية الكلية ، من حيث يســـتخرج بهـــا أحكام جزئيات المحكوم عليه فيها) [١].

فهذا انتقال دلالي – وتعبير الكفوي صريح فـــي هـــذا – بالاستعارة ، لتشابه المعنيين في الضبط، واطراد الأحكام .

ويحدثنا الشهاب الخفاجي (ت ١٠٦٩هــ) هو الآخر بأن أصل معنى القانون : المسطرة . قال (قانون : رومى[٢] معرب ، معناه الأصل والقاعدة . وأصل معناه : المسطرة ، ثم سمي به آلة من آلات الطرب ، على التشبيه ؛ كأنه مسطر تحريرات النغم) [٣] . وهذا معنى جديد آخر له .

وأول من ذكر لفظ القانون – فيما أعلم – مـــن أصـــحاب المعجمات العربية المتقدمة: الجوهري، إذ قـــال : (القـــوانين :

(١) الكليات (فصل القاف) ٧٣٤

(٢) وذكر الخوارزمي أيضا في مفاتيح العلوم ٥٤ أن هذه الكلمة يونانية معربة ، وكذا في غرائب اللغة العربية لرفائيل نخلة اليسوعي ٢٦٤ ، وفي المعجم الوسيط كذلك (قن) ٧٩٣/٢ : أنها (رومية ، وقيل فارسية) . فليست هناك إشارة إلى أنها سُريانية ، فلعل الكفوي عدَّها كذلك لشهرة السُّرْيان بالترجمة كثيرًا عن اللغة الرومية (اليونانية) إلى العربية ، كما هو معـــروف (انظر : مناهج البحث في اللغة : ١٦) .

(٣) شفاء الغليل ٢٣٩

الأصول ، الواحد قانون ، وليس بعربي) [(١)] . ويقول الزبيدي : (القوانين : الأصول) [(٢)] . ولا تعارض بين هذا القول وما ذكره الكفوي ، ويوفَّق بينهما نص الخفاجي .

وأما أنه انتقل معناه إلى القضية الكلية ، فهذا في عــرف المناطقة . يقولون : (القضية الكلية : التي سورها يعم الإيجاب ، أو السلب ؛ مثل قولك : كل إنسان حي ، أو لا واحد من الإنسان حجر)[(٣)]. فيعرف بهذا القانون أو القضية الكلية ، أحكام جزئياتها ؛ لأنها داخلة في الحكم .

ويتحقق هذا المعنى في القانون أيضا لدى غيرهم ، ولكنْ كل حسب علومه ؛ ولذلك يقول الشريف الجرجاني : (القانون : أمر كلي منطبق على جميع جزئياته التي يُتَعَرَّف أحكامها منــه ؛ كقول النحاة : الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، والمضاف إليه مجرور) [(٤)] . وهذا ما عرف به المناوي والمعجم الوســيط

(١) الصحاح (قنن) ٢١٨٥/٦ وليس لهذه الكلمة ذكر في العين أو الجمهرة أو التهــذيب أو المقاييس في موضعها . ولا توجد في القرآن الكريم ولا الحديث الشريف . فلعل ذلك يرجــع لدخولها العربية متأخرة بعد عصور الفصاحة . وقد قال ابن سيده عنها (وأُراهــا دخيلــه) . المحكم (قنن) ١٣٦/٦ وعنه في اللسان (قنن) ٣٣٢/٥ فيكون تعبير بعضهم بأنهــا معربــة تساهلا ، أو من باب إطلاق المعرب على الكل : الدخيل وغيره.

(٢) التاج (قنن) ٢٦/٣٦

(٣) مفاتيح العلوم للخوارزمي ١٤٦

(٤) التعريفات (القانون) ٢١٩

كلمة القانون [1] ، مع نص المعجم الوسيط على أن ذلك هو معناه في الاصطلاح.

فالكلمة انتقل مدلولها إلى القضية الكلية ، والأمر الكلي (= القاعدة) [2] بعد تدوين العلوم ، واستخراج أحكامها ، وضبط جزئياتها .

وهناك في التراث العربي كتب تحمل هذا الاسم ، كالقانون في الطب لابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) والقانون في اللغة لسَلْمان بن عبد الله النهرواني النحوي [3] (ت ٤٩٤هـ) .

ويدل القانون في العربية المعاصرة على هذا المعنى في دور العلم ، وعلى آلة من آلات الموسيقى ، وعلى (مجموعة قواعد أو أحكام عامة ثابتة يتبعها الناس في علاقاتهم الاجتماعية ، تصدرها وتنفذها الدولة صاحبة السيادة ممثلة في المجلس التشريعي الذي يقرها والمحاكم التي تطبقها والسلطة التنفيذية التي تراقب تنفيذ أحكام المحاكم ، ويجازى المخالِف بتوقيع عقاب مناسب ... الغرض منها إيجاد نوع من التنظيم في المجتمع يمنع الفوضى أو يحد منها) [4] .

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف ٥٧٠ والمعجم الوسيط (قن) ٧٩٣/٢

(٢) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون القاعدة ١٢٩٥/٢

(٣) كشف الظنون ١٣١١/٢ ، ١٣١٣

(٤) القاموس السياسي لأحمد عطية الله (القانون) ٩٠٩

الإقــامـــة

قال الكفوي : (الإقامة : إفْعَال من القِيَام ، والهمزة للتعدية . فمعنى أقام الشيء : جلعله قائمًا، أي منتصبًا ، ثم قيل أقام العُودَ : إذا قَوَّمه ، أي سوَّاه وأزال اعوجاجه ، فصار قويمًا يشبه القيام . وتستعار الإقامة من تسوية الأجسام التي صارت حقيقـة فيهـا لتسوية المعاني ؛ كتعديل أركان الصلاة على ما هو حقها) [١].

تتبع الكفوي هنا ما حدث لكلمة إقامـة وفعلهـا ، عبـر تاريخها ، من تغير معناها ، وانتقالها إلى معنى، ثم إلـى معنـى آخر . مبينًا أن ذلك كان بالاستعارة لعلاقة المشابهة .

وذكر الألوسي كذلك هذا الانتقال الدلالي [٢] في تفسـير قوله تعالى : ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾[٣].

وقد جعل ابن فارس قيام الإنسان ، أي انتصابه أصلا لهذه المادة : (القاف والواو والميم) ، مع أصل آخر هو : القَـوْم ، وهم جماعة من الناس [٤].

(١) الكليات (فصل القاف) ٧٣١

(٢) روح المعاني ١١٨/١

(٣) سورة البقرة من الآية : ٣

(٤) انظر : المقاييس (قوم) ٤٣/٥

وفي أساس البلاغة – في المعاني الحقيقية – : (قامَ ... وأقامه من مكانه ... وقوَّم العود وأقامه فقام واستقام وتقوَّم)[1] . والمعنى الأخير صار حقيقة بكثرة الاستعمال ، وليس هو كـذلك في الأصل ، كما تقدم . وهذا يؤكد ما سبق ذكره من أن الزمخشري يعد من المعاني الحقيقية ما صار حقيقة عرفية .

وذلك أن الإنسان قد وُجد أولاً ، ثم استعمل العود أو الرمح فيما يحتاج إليه في حياته ؛ فقيامه وإقامة القاعد من مكانه ، أسبق من إقامة العود ، بمعنى تسويته وإزالة عِوَجه ، ويتصور أن يَنْقُلَ الإنسان هذه التسوية الحسية إلى المعاني ؛ فيقال أقام الصلاة إقامة ، أي أداها بحقها ، إذ المعنى الحسي أسبق من المعنى المعنوي ، كما هو مقرر ومعلوم .

ويقول البيضاوي في تفسير ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾ : (أي يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها ، من أقام العود إذا قوَّمه)[2]. وقد ذكر الكفوي والألوسي أن هذا قد صار حقيقة عرفية ، وأخذت منه إقامة الصلاة . ويعني هذا التفسير أن هذا التطور الدلالي قديم .

ومثل ذلك الترتيب التاريخي لدلالات الألفاظ ، يفيد في المعجم التاريخي للعربية ، لو جُمع ما على تلك الشاكلة من

---

(١) أساس البلاغة (قوم) ٣٨٢

(٢) أنوار التنزيل ١/١٨ وانظر : تفسير النسفي ١/١٣ وغرائب القرآن ١/١٣٤

النصوص المتناثرة في بطون الكتب ، ودُرِسـت وقُـدِّمت لهـا الشواهد الممكنة .

التَّـنَزُّه

قال الكفوي : (التنزه : التباعد . والاسم النُّزْهَة ، بالضم ، واستعمال التنزه في الخروج إلى البساتين والرياض غلط قبيح) (1).

وعلم اللغة الحديث لا يسيغ إغفال شيئ أو تركه لتقبيحه ، فما حدث لدلالة التنزه هو في حقيقته تطور بانتقال الدلالة ، قُبِـل أو رُفض. ويبدو أن الكفوي نقل ذلك عن الفيـروز آبـادي فـي القاموس ؛ لاتفاق النصين (2).

وقد رصد أبو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) ذلك التطور قديمًا ، فقال : (وأصل التنزيه : البعد مما فيه الأدناس ، والقـرب إلـى مافيه الطهارة والبَرَاء ... ثم كثُر استعمال النـاس النُّزْهـة فـي كلامهم حتى جعلوها في البساتين والخُضَر ، ومعناه راجع إلـى ذلك الأصل) (3). فقد حدث هذا استجابة لواقع الحياة ، وكثـرة

---

(١) الكليات (فصل التاء) ٣١٥

(٢) انظر : القاموس المحيط (نزه) ٤/٢٨٨ – ٢٨٩ ، وإن كان الكفوي قد أسقط كلمـة : (والخُضَرِ) من النص . وهو في التاج (نزه) ٣٦/٥٢٤

(٣)غريب الحديث لأبي عبيد ٣/٨١ وعنه في الزاهر لابن الأنباري ١/٢٢٥ بتصرف منه

استعمال التنزه في معنى جديد مناسب لأصله اللغوي . وسيتضح هذا فيما سيأتي .

وذكره ابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) بقوله : (ومما تضعه العامة في غير موضعه قولهم : خرجنا نَتَنَزَّهُ ، إذا خرجوا إلى البساتين ، وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف) [١].

ويدافع عن هذا التطور ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فيقول : (وليس هذا عندي خطأ ؛ لأن البساتين في كل مصر وفي كل بلد ، إنما تكون خارج المصر ، فإذا أراد الرجل أن يأتيها فقد أراد أن يتنزه ، أي يتباعد عن المنزل والبيوت ، ثم كثر هذا واستعمل حتى صارت النزهة القعود في الخُضَر والجِنان) [٢]. ويبدو أنه استفاد في الصلة بين المعنيين والربط بينهما بهذا من إشارة أبي عبيد السابقة.

وهذا التطور الدلالي الذي رصد في القرن الثالث الهجري مستمر في العربية المعاصرة إلى اليوم .

---

(١) إصلاح المنطق ٢٨٧ وعنه في مادة : (نزه) في التهذيب ١٥٥/٦ والصحاح ٢٢٥٣/٦ والمصباح المنير ٦٠١/٢ والتاج ٥٢٤/٣٦

(٢) أدب الكاتب ٣٤ ، وانظر ذلك عنه في المصباح المنير (نزه) ٦٠١/٢

الخاتمــة

يتضح من تلك الدراسة ، أن الكفوي وقف علــى بعــض أسباب التطور الدلالي ، وأنه عرف مصطلح " التخصيص " فــي حين لم يعرف المصطلح المقابل لذلك وهو "تعمــيم الدلالــة" أو "توسيعها" ، وكان يستعمل للدلالة على هذا بعض العبارات ؛ مثل : " ثم اتسع فيه " ، و" ثم كثر ذلك " ، و" هذا من الخاص الــذي جعل عاما ، واستعمل في موضع العام " .

– وأن تخصيص الدلالة ، وتعميمها ، وانتقال مجالهــا ، مصطلحات ثلاثة قديمة في التراث العربي ، وليست من صَــــكِّ المحدثين من الأوروبيين وغيرهم .

– وأن تطور دلالة الألفاظ بانتقال المجال الدلالي ، كـــان أكثر أشكال التطور الدلالي وُرُودًا في الكليات للكفــوي ، تليهــا ألفاظ التخصيص ، ثم التعميم الدلالي ؛ مما يشير إلى الدور الكبير الذي يلعبه المجاز في حياة الألفاظ .

– وأنه وجدت لدى الكفوي فكرة عما يسمى لدى المحدثين بنظرية العلاقات الدلالية Semantic Realtions أو العلاقــات داخل الحقل المعجمي، وذلك حين أشار إلى علاقة الخبر بالنبــأ ، وربط بينهما ، لبيان معنى الخبر ، وتطور دلالته .

– وأن الكفوي كان على وعي بقوة التطــور الــدلالي ، ونفوذ سلطانه ، بحيث يمكن أن تقضي الدلالة العرفيــة الجديــدة

على الدلالة اللغوية الأصلية ، وأن ذلك مما التفت إليه علماؤنا القدامى كذلك .

– وأنه من الصعب أن تحتفظ الكلمةالتي تشير إلى أنواع ، أو أصناف كثيرة ، بمدلولها العام ، مع مرور الأيام ، واختلاف البيئات والجماعات اللغوية .

– وأن دراسة التطور الدلالي تفيد في المعجم التاريخي للغة العربية وتفيد كذلك في موضوع التأصيل اللغوي وحل مشكلة شذوذ بعض الكلمات عن أبوابها كما رأينا في معالجة كلمة " قَبْل " .

ويدعو ذلك إلى الاهتمام بموضوع التطور الدلالي في تراثنا العربي، وزيادة العناية به ؛ لجمع ما تفرق فيه عن هذا التطور ، وتكوين نظرية عربية متكاملة عنه .

وله – جل شأنه – الحمد في الأولى والآخرة

د. ياسر السيد رياض